

مَجْلَدُ رَبِيعِ الْعَامِ الْوَأُولَى

منازل الامبراطور الاعمى

قصص قصيرة



الطبعة الثانية

الباحة

2024

محمّد بن ربیع الفامری

منازلات الإمبراطور الأعشى

مجموعة قصص قصيرة

الطبعة الثانية

٢٠٢٤/١٤٤٥



٢ محمد ربيع الغامدي ، ١٤٤٥ هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
منازلات الإمبراطور الأعمى . / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢ . -
الباحة ، ١٤٤٥ هـ
١٤٣ ص ؛ .سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٨٤٩٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٩٨٣٩-٠

الأغلفة من تصميم الأستاذ مصطفى الدناصري

الصفحات من تصميم محمد بن ربيع الغامدي

الطبعة الثانية (٢٠٢٤) الباحة

حقوق الطبع للمؤلف

الإهداء

إلى الكمامات

والمعقمات

والتطعيمات

والاحترازات

إلى العزلة الهائلة التي أحاطت بنا مثل خيمة حزن

ثم إلى الكُوى الصغيرة التي كنت أرى العالم عبرها.

المؤلف



قائمة القصص

صفحة	عنوان القصة	م
٧	في بيتنا نخلة سكرية	١
١٣	بئر الخفافيش	٢
٢٥	مكسرات الصالحين	٣
٣٥	كورونا على رقعة شطرنج	٤
٤٧	الجرادة العملاقة	٥
٥٩	عازف الصرناي	٦
٦٩	أمثلة الرياح والسفن	٧
٧٩	منازلات الإمبراطور الأعمى	٨
٩٩	حفلة عمى الألوان	٩
١١٠	عاصفة الصين	١٠
١٢١	الجماعة	١١
١٣٣	المغارة البرتقالية المقدسة	١٢





فك بيتنا سُكّرية!

رفعت رأسي وضحكت، كان صوت زوجتي يملأ فضاء الغرفة من حولنا وهي تغني: كورونا كل سنه مرّة! سألتها والضحكة باقية كوشم على شفاهي: السخرية من الأغنية أم من السيدة فيروز أم من كورونا؟ قالت لا من الأغنية ولا من السيدة فيروز ولا من كورونا. ثم أضافت: بل لا أسخر إطلاقاً، ما غنيت سخرية من أحد. غنيت تعجبا منك ومن هذه الآلة الكاتبة التي أحدودب ظهرك عليها منذ ساعات الصباح الباكر. أمضيت سحابة صباحك تبحث عنها في مستودع مهجور لم تدخله الشمس من زمن بعيد، تنقب هنا وتنبش هناك، تحمل قطعة، وتضع أخرى، وها أنت الآن تمضي سحابة مساءك تنظف وتعديل وتصلح ما أفسده الدهر منها.

انكبتُ - والوشم ما يزال فوق شفاهي - على الآلة مرة ثانية أنظفها، أزيل عنها بقايا زيوت قديمة، أعدل أوضاع الحروف المتراصة فوق حاملة الأحرف. كانت هناك أحرف عديدة قد مالت عن مواضعها نحو اليمين أو نحو اليسار فعدلتها، لحسن حظي لم يتطلب الأمر أكثر من ضغطة قوية بالإبهام تسنده السبابة كما يسند السندان



مطرقة تهوي من أعلى. اعتدل حالها جميعا عدا حرف واحد، نظرت إليه وخاطبته: يا لك من حرف لئيم! سوف أهملك تماما، سأجنب كل كلمة تسكن إليها أيها الحرف العاق. يبدو أن صوتي كان عاليا وأنا أخاطب الحرف، أو مسموعا - على الأقل - لزوجتي، ولذلك ضحكت قائلة: حلمك قليلا على الآلة، وعلى كل قديم أسدى إليك معروفا ذات يوم. سمعت كلامها وانهمكت في آخر خطواتي: تنظيف حامل الأحرف بعد تصحيح حالته بقدر الإمكان.

قلت لزوجتي وأنا أنظف حاملة الأحرف تلك: هذه آلة المرحوم أبي. أنت تعرفينه محاميا لا يشق له غبار، لكنك لا تعرفين أنها آله، كتب عليها كل مرافعاته، وجميع قضاياه وملاحظاته، وحتى الصكوك الشرعية التي كان ينسخ منها نسخة مطبوعة على الآلة كما يطلب الناس، ثم مات أبي وهي باقية على أحسن حال فورثتها عنه. قاطعتني قائلة: فعلا لا أعرف ذلك، لكني أعرف أنك كتبتَ عليها معظم رواياتك إن لم تكن كلها، وكتبتَ عليها كل قصصك الطويلة والقصيرة، والقصيرة جدا أيضا، ولكن!

استوقفتني لكن هذه التي أغلقتَ عليها فقلت لها بعد ثوان من الصمت: لكن ماذا؟ أجابت وقد ارتسمت الجدية على وجهها مثل



نیشان علی صدر محارب: ولكنك هجرتها، هجرتها بقسوة بعد استئناسك للحاسوب. ثم اقتربت مني لتقول: وهكذا أنتم الرجال!
رفعت رأسي وأسندت ظهري وضحكت بعمق، ضحكت كما لم أضحك من قبل، قلت لها: لماذا يا أمة الله تنصبين لي في كل منعطف كميناً؟ ثم بالله عليك بأي وصف تصفين الذي أقوم به الآن؟ أذهب إلى المستودع الموحش المتشبع بالغبار والأتربة، أقلب محتوياته راساً على عقب، ثم استخرج هذه الآلة من تحت الركام والغبار لصيانتها رغم عدم حاجتي إليها، ماذا تسمين هذا بالله عليك يا بعلي؟ أليس هذا هو الوفاء بخذافيره؟ صمتت برهة، ثم تلبست جدية ما رأيتها عليها قبل اليوم، ثم تحدثت وكأنها تلقي قصيدة في محفل أدبي: ثلاثون عاماً وهي مهجورة في مستودع أشبه ما يكون بمقبره، وبعد الثلاثين تتحدث عن الوفاء؟

استفزني ما سمعت، أو قل: استفز نواياي الطيبة! تركت الآلة ثم انتصبت مثل رمح سمهري، قلت لها بالفم المليان - كما يقولون - : اسمعي يا أم أبنائي، الرجال والنساء سواء أمام التقنيات التي تقودنا بشكل جنوني في شوارع الحياة، كل آلة تلعن التي قبلها، ونحن تبعنا لذلك نترك القديم ونأخذ الجديد، أما سمعت قول الشاعر: بطلوا ده

واسمعوا ده! ثم يا عزيزتي لم لا تنظرين في نفسك أيضا؟ انظري في نفسك
أولا، كيف تركتِ النوكيا المسكين وتحولت إلى الآيفون؟ أم أن هذه لا
تتوقف مشاعرك عندها؟ ومع أنني كنت أتحدث كما يتحدث تيم
ماتيسون في بونانزا إلا أنها ضحكت، ضحكت فقط. وهي عندما
تضحك دون أي كلام فإنها تفسد عليّ انتصاراتي عادة!

أكملت ضحكاتها المماكرة ثم ضربت بيدها على طرف المنضدة،
وبهدوء نَهَضَتْ من فوق مقعدها. قالت إنها ستذهب لتروي النخلة
السكرية التي غرسها أبي في الحديقة وخرجت. خرجت بالفعل، خرجت
وتركتني مثل سيارة ارتفع غطاء ماكينتها في ظهيرة من هب. قلت
لنفسي: أيّ نخلة؟ تابعتها من مكاني بعينين ملؤهما ألف سؤال. عدت
لنفسي وقلت في داخلي: ما عرفت في بيتنا نخلة واحده منذ فتحت
عيني على الحياة وإلى يومنا هذا. التفت حيث رأيتها آخر مرة وهي
تخرج ثم همست: يبدو أنها تخطط لمعركة أخرى، نعم هي تخترع قضية
أخرى وإلا فلا نخلة في بيتنا، نعم وألف ألف نعم فأنا أعرف أنه لا نخلة
في بيتنا.



عدت أنظف أذرعه الحروف في الآلة، جلست وانكبت لكني
رفعت رأسي ثانية وسألت: عن أي نخلة تتحدث؟ أما لو صدقت
فستكون فضيحتي بجلاجل، نخلة في حديقتنا ولا أعرف عنها شيئا؟
نهضت من مكاني وأنا أعرف أنه لا نخلة عندنا، بل وأقسم على
ذلك، لكن - وللحق - فقد غبت عن الحديقة سنين طويله، فلماذا
أقسم؟ ما الذي يدريني؟ لعل أبي قد غرس فيها فسيلة يوم إن كان حيًا،
ثم كبرت تلك الفسيلة حتى أصبحت نخله. أبي كان مغرما بالزراعة، وأنا
ما حضرت يوم غراسها ولا عشت معها وهي تنمو يوما بعد يوم،
وزوجتي تلوب أرجاء البيت وأطراف الحديقة في كل ساعة مثل ذئب
قلق، بل في كل دقيقة، بل في كل ثانية. ضحكت من هذا الوسواس
الخنّاس ثم قلت: من يدري؟

فركت جبيني ولعنت أبو الكورونا وعزلة كورونا، هذا الفراغ
الطويل يبدو مثل نفق طويل في طريق طويل. لقد بعثنا في عزلتنا هذه
كل شيء، الماضي والحاضر، وحتى المستقبل لم يسلم من نبش أظافرنا.
لكن - ولكي أكون منصفًا - فقد عدنا - بسبب هذه العزلة - إلى
بيوتنا، إلى روائحننا، بعد أن غبنا عنها كثيرا وطويلا. أخذتنا مشاغل
العمر، طوحت بنا بعيدا عن أنفسنا، ألقنا بنا خارج ذواتنا. أودعنا



طابتنا ومحبتنا داخل مستودعات مظلمة، ثم أغلقنا عليها الباب وأحکمنا عليها الأقفال، والان عدنا، عدنا فما حكمة أن نلن كورونا؟ مشيت على رؤوس أصابعي، أمشي بتؤدة وركبتي تصفق أختها، اتجهت صوب النافذة وأنا خائف أترقب، أترقب حتى لا تراني فلربما كانت معي هنا ولم تخرج، لا أريد أن يظهر لها مني هزيمة أو يظهر لها مني تردد أو حور. فتحت باب النافذة دون أن تحدث صوتا على غير عاداتها، حدثت نفسي: قلت أطل منها وكأنني أبحث عن شمة هواء لا غير، شمة هواء فقط، وفي هذا الأثناء أكون طالعت الحديقة من أقصاها إلى أقصاها، هل هناك نخلة سكرية بالفعل أم ذلك نسج خيال، شرك تنصبه زوجتي فحسب.

فتحت باب النافذة الخارجي ويدي ترتعشان، أخرجت رأسي مثل رضيع كانغر ينظر إلى الكون الفسيح وهو في جيب أمه، مسحت الحديقة كما يفعل الباركود إذ يبحث عن السعر، مسحت الحديقة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، بحثت بحث فاحص مدقق فلم أجد لا نخل ولا سدر ولا حتى زوجتي. أعدت رأسي للخلف، أخرجته من إطار النافذة ثم أغلقتها بهدوء، أغلقتها واستدرت فلما استدرت وقع وجهي بوجهها وهي تسأل بمكر: شفت النخلة السكرية!؟



بئر الخفافيش

عندما فتحت له باب بيتي ورأيت وجهه أدركت أنه في غاية الغضب، أعرف غضب أخي من فمه، عندما يستفزه أمر أو يغضبه أحد يتصحّر فمه ويجف حتى يبدو لك وكأن حريقاً قد شب فيه ليلة البارحة. وفي الواقع فإن الحريق قد شبّ بالفعل لكن ليس في فمه بل في قلبه، لقد أتى كورونا على بعض أحلامه إن لم يكن قد أتى عليها كلها.

المسكين أغلق صالون الحلاقة بقوة القانون فالحلاقة بؤرة محتملة لانتشار فيروس كورونا، ومع أنه قد حمل حقيبة الحلاقة وخرج تحت جناح الليل لحلاقة زبون خاص إلا أن جاره قد وشى به عند السلطات الصحية وتم تغريمه فاجتمعت بساحته نازلتان: إغلاق الصالون وغرامة السلطات الصحية لذلك خرج من جلده غضباً، ومما زاده حنقا أن هذا الوبأ اللعين قد داهم ديارنا فجأة، اجتاحتنا مثل سيل منقول حط علينا من علٍ.

نشرات الأخبار، أحاديث المجالس والناس، حوارات مواقع التواصل الاجتماعي، كلها لم تكن تتحدث إلا عن الصين. الوبأ



المسمى كوفيد ١٩ لا وجود له إلا في الصين فقط، وتحديدًا في مدينة ووهان. ليس مهما لأي سبب من الأسباب ظهر، وليس مهما لأي سبب من الأسباب انتشر، وليس مهما أن نعرف إلى أين سوف يصل، المهم أنه - في جميع الأحوال - حالة مرضية تخص مدينة ووهان لوحدها. وحتى لو تجاوز ووهان فهناك آلاف المدن الصينية المكتظة بالسكان، مدن عملاقة سوف تبتلعه فنتهي قصته في الصين كما بدأت في الصين. نستمع إلى أخباره تلك وما دار في خلد أحد منا أنه سيصل إلى أقصى غرفة نومه وبتلك السرعة.

تحت ظلال الاطمئنان هذه كنا نتحرك بلا خوف ولا وجل، كورونا عند كثيرين منا مجرد خبر عالمي، وعند البعض لا يزيد عن نكتة. ورغم حملة التوعية التي تفتقت عنها قريحة التلفزيون المحلي، ورغم أننا قد ارتدينا الكمامات واستأنسنا سوائل التعقيم في الغدو والرواح إلا أنه ما رَفَّ لنا جفن ولا تصدعت منا أفئدة. اعتبرنا ذلك وعيا صحيا فقط، وعي نفاخر به بعضنا، أو مشاركة وجدانية لمن غشى ديارهم ذلك الوباء. ولذلك باتت الكمامات تغطي الشوارع والمحلات ودور العبادة، وباتت المعقمات عطرا اعتدنا عليه كل حين، وأدخلنا أكفنا داخل

قفازات شفيفة تسر الناظرين. والأشد نكاية أن أرزاقنا أيضا باتت -
تحت وطأته - على كف عفريت في تطورات دراماتيكية متلاحقة.

سرحت قليلا مع هذا الهاجس الذي مر بخاطري كمقطع في
واتس أب، هاجس استغرقني بالكامل لبضع دقائق، لم ينقطع من مخيلتي
إلا عندما وكزني أخي. وكزني بقوة في كتفي الأيمن وهو يقول أين المفتاح؟
ومثل نائم استيقظ مذعورا سألت: أي مفتاح؟ وقبل أن يجب تذكرت
مفتاح بدروم أبي، ذلك الإرث العظيم الذي تركه لنا أبي. كان البدروم
بمثابة المشتى السنوي لعائتي وعائلة أخي، إذا حل الشتاء وزمهريره انتقلنا
إليه إلى أن يرحل الشتاء، وعندما وسّع الله علينا واستأنسنا أجهزة
التكييف تركناه، استغنينا عنه لكنه بقي مثل غراء يشدنا إليه، أو مثل
رابطة نجتمع حولها، وبقي المفتاح عندي مثل عهدة حكومية! وكثيرا ما
كان أخي يصفني بحامل مفتاح البدروم!

تراجعت نحو الداخل، نحو خزائي السرية، غبت قليلا ثم عدت
صوب أخي ومعني المفتاح الذي أعرف مكانه جيدا. ناولته وكنت أنوي
سؤاله عن هدفه لكن آثرت عدم السؤال، ولماذا أسأله وقد اعتدت على
زياراته المتكررة للبدروم. أخي يأتي بين الفينة والفينة لبحث عن حاجة
من الحاجيات المكدسة فيه ويا لها من حاجيات! مرة يبحث عن قدوم

أبي، وأخرى عن مسنّ سكاكين أبي، وثالثة عن منشار أبي، أو عن مسحاته أو عن أي أداة من الأدوات الكثيرة التي رحل أبي عنها مخزّنة في "بدرومه" العتيق، وكثير منها قد تجاوزه العصر ولم يعد له أدنى فاعلية. أخي يجد متعة في تقليب هذه الحاجيات بين يديه، دقائق معدودة ثم يتركها ويعيد لي المفتاح ويمضي.

قال لي وقد عضّ على المفتاح بالإبهام والسبابة: أنزل معي. ثم كرر في صيغة سؤال: هل تنزل معي؟ قلت له حسنا وهبطنا السلم العتيق الذي سينزل بنا. كان السلم ينضح بالأيام التي درّجت، عليه بصمات قرون خوالي، قرون تركتنا ومضت دون أن تكترث بأحد. وعلى السلم ذاته ذكريات عمر يمر بنا على عجل، وهو بدوره مضى دون أن يكثر بنا. قلت لأخي قبل أن نصل: نعتقد دائما أننا نمضي ونترك الأيام خلفنا وفي الحقيقة فهي التي تمضي وتتركنا خلفها، قال ببرود غريب: وسوف يجتاحنا كورونا ويمضي ويتركنا خلفه مثل جراد ميّت.

عندما وطئت أقدامنا أرض البدروم كانت رائحة أبي تتضوّع في جنباته، وكان خياله يطوف بنا، حتى سجاداته التي اعتاد أن يصلي عليها الشفع والوتر ماتزال ممدودة وكأنها بساط السيد أحمد البدوي، وصوته باق يتلو سورة الشمس وضحاها في ركعتين اعتاد عليهما في

كل هزيع. لقد انتقلت وأخي - بنزولنا هذا- إلى عصر مضى، وكأننا
نعبر نفقا زمنيا، أو نستقل مركبة تسافر بنا عبر العصور.

شرع أخي ينقب عن شيء ما، فضّلت ألا أسأله، بل قررت أن
أشغل نفسي بالبحث أيضا فإن بدروم أبي مزدحم بالأشياء
والحاجيات، ولنا مع كل قطعة منها صحبة وذكرى، بل قل: معالم حياة
عشناها في كنف أبي الذي جعل مني ومن أخي أشهر حلاقين ماهرين
في طول المدينة وعرضها مثلما كان هو حلاقا ماهرا طارت شهرته في
الآفاق، ورغم أنه - عفا الله عنه - قد أحرمتنا من مواصلة التعليم إلا
أنه قد أسدى إلينا معروفا فمهنة الحلاقة مهنة مربحة، وفوق ذلك فهي
مهنة أوصلت بيننا وبين الناس عرى تعارف وثيقة فتجد من بين
أصدقائنا كبارا ومشاهير ومسؤولين وحملة شهادات عليا وذوي مناصب
رفيعة.

التقطت جزدانا قديما وشرعت أتملّى في دقيق صنعه، ومع كثرة
زخارفه ونقوشه إلا أني في واقع الحال كنت أسترق النظر إلى أخي،
أراقبه من تحت أجفان منسدلة لأرى ما ذا يصنع، إن حالته النفسية
عموما ليست على ما يرام، وزيارته لبدروم أبي في هذه الساعة المتأخرة
من الليل لا يمكن اعتبارها أمرا عاديا، فإذا أضفنا لذلك كله طريقته في



طلب مفتاح البدروم فإن مراقبتي له من حيث لا يراني هو أمر مبرر تماما.

وقف أخي أمام مكتبة صغيرة وتناول منها مجلدا، يبدو من شكله الخارجي أنه مخطوط مألوف لديّ عنوانه: فتوح وادي السيسبان. قلب صفحاته بتوتر ظاهر حتى تحوّل التقلب إلى فرّ سريع، فرّه ثانية، ولكن من اليسار إلى اليمين في هذه المرّة، ثم أعاد الكرة ثانية في الاتجاه المعاكس. توقف عند عنوان المخطوط، تأمل بعض الوقت ثم أعاد الكتاب إلى موضعه بطريقة قلقة جدا.

تغيّرت وتيرة البحث عند أخي فلم يعد يتوقف عند الأشياء، بل يمرّ بها عجلان وعيناه تبحثان عن شيء ما، يحمل بعض الأشياء ويزيحها قليلا ليفتش عن شيء تحتها ثم يعيد تلك الأشياء. كنت أراه مثل آكل نمل يفتش عن فرائسه بين أوراق الخريف، وظل على هذا الوصف حتى أتمّ دورة كاملة أوصلته إلى حيث كنت أقف، عندما وقف أمامي وجها لوجه سألني: أما زلت تذكر بئر الخفافيش؟

صعقني هذا السؤال، صعقني وأخافني أيضا، صعقني لأنه سؤال مفاجئ يحمل فكرة مفاجئة لا علاقة لها بالحسبان إطلاقا. وأخافني لأنه بدا لي لأول وهلة مثل علامة أكيدة على جنون أخي، أو تأكيد على

الجنون الذي كنت أتوقعه لأخي بعد سلسلة كوارث كوفيد-١٩ التي حلّت بساحته. لا بد أن يكون السؤال عن بئر الخفافيش سؤال مجنون وإلا فما علاقته بيدروم أبي الذي نجتمع فيه الآن؟ وما علاقته بهذا البحث والتنقيب الذي يقوم به أخي؟

قلت له: نعم، أعرفها. بئر الخفافيش في منتصف الطريق بيننا وبين سلاسل الجبال، كنا نمرّ بها جيئة وذهابا ونحن في طريقنا إلى المدن الواقعة في أعالي الجبال، ولكن! ما لذي جاء بتلك البئر على لسانك في هذا المكان وفي هذا التوقيت؟ وهي بئر مهجورة وجافة ليس فيها سوى طيور الوطاويط كأنها فئران مجنّحة. قال لي: أدري عن ذلك، وستعلم الليلة ما الذي جاء بها على لساني في هذا المكان وفي هذا التوقيت.

قبل أن أفيق من ذهول بئر الخفافيش سألني: وأين شوزن أبي؟ كان السؤال مثل حفنة من الرمل قذف بها في وجهي، تأكد لي ساعتها أن الخلل قد اعتري ذاكرة أخي وعقله وإدراكه فاقتربت منه. اقتربت منه مرتبا على كتفه يتمزق فؤادي من أجله، ولذلك اقترحت عليه بعض الراحة عندي وفي بيتي، من حقه عليّ أن أرعاه في هذا المنعطف الخطير

ومن واجبي أن أحميه. لم يعد خافيا أن الرجل قد فقد عقله وأن صدمته كانت فوق احتمالاه وهذا هو الوقت المناسب لأكون أخا وقيًا.

أعاد السؤال بثقة العاقلين المدركين: أين الشوزن؟ بندقية أبي الأثيرة أين هي؟ ألم تكن معلقة في هذا الحائط؟ سأل وتحرك نحو الحائط، نحو الموضع الذي كانت بندقية الشوزن معلقة فيه فأضاف: كانت هنا، في هذا المعلق كانت شوزن أبي، أين هي الآن؟ اقتربت منه ومن المعلق وقد تغيرت نظرتي نحو عقله، إن تحديده هذا هو تحديد دقيق وصائب لا يصدر عن مجنون أو خرفٍ أبدا.

رأيت أن من واجبي توضيح أمر مهم فقلت له: لقد نقلتها إلى مكان آمن، عندما كبر أبناؤنا وبدأوا يجوسون أطراف البيت في حضورنا وفي غيابنا خشيت أن تقع هذه البندقية في أيديهم فيحدث منهم وعليهم مالا تحمد عقباه. سمع أخي هذه الكلام فانفتحت أبواب وجهه وتهللت أساريره، شدّ على يدي بحماس شديد وأضاف: إذن هو عندك؟ قلت له: ليس تماما. هو خلف ذلك الدولاب، عندما تزحزحه إلى الأمام ستجده مموها ببعض الأغطية في فتحة يستند عليها الدولاب بظهره.



أخذ بندقية الشوزن وشرع يقلبها في يده، طلب مني تجهيز أكبر كمية من الطلقات ثم الانطلاق في ذلك الهزيع من الليل إلى بئر الخفافيش، ثم أقسم بالطلاق أنه لن يترك على الأرض خفاشا فالخفافيش هي الحاضنة الماكرة لوبأ كوفيد-١٩ ولا بد من مسحها تماما عن الوجود. انتابني حالة من عمى البصيرة فقلت له: مجنون أنت؟ في هذا التوقيت نخرج لملاحقة الخفافيش؟ هل أصابك شيء في عقلك؟! ندمت سريعا على موقفي هذا فهو أخي الأكبر وفي مقام أبي، وهو موجوع تماما بسبب عقابيل جائحة كورونا، ولذلك قلت له: العالم كله من شرقه إلى غربه في حالة إغلاق، والسلطات هنا تمنع التجول طوال الليل وطرفا من النهار، ليس في مقدور أحد أن يخرج لشراء حاجته من الخبز في هذا الوقت وتريدنا أن نخرج ومعنا سلاح ناري محرّم دوليا؟ ثم اقتربت منه وقبلت رأسه وأضفت: والمهمة ذاتها مهمة غير منطقية وإلا فما شان خفافيش بئر الخفافيش بكوفيد-١٩؟ هل ترى من الحكمة أن نعاقب طيورا لا ذنب لها؟

التصقت بأخي ثم احتضنته، قلت بأنه يمزح، وقلت بأننا نمتاح منه الحكمة دائما، وقلت له بأني لا أصدق أن تبدر منه فكرة كهذه، قلت ذلك وزيادة ثم شرعت أقبل رأسه ثانية لكنه أزاحني بقوة، وعندما

وقعت عيناى على عىنه قرأت فىهما شىئا مخىفا، كانت عىناه أقرب إلى عىن مىت طلعت روجه للتو. غير أن الحىاة ما لبثت أن دبت فى عىنه فحدق فى وجهى هنىهة ثم أمرنى بصرامة: خذ معك الطلقات واتبعنى الآن.

وقفنا على حافة بئر الخفافىش بعد أن سلك بنا طرىقا مهملا لم يعد يسلكه أحد، وجه مصباحه الىدوى نحو جنبات البئر فرأىنا الخفافىش معلقة وكأنها ملابس داخلية سوداء على حبل غسىل، جهز الطلقات التى ترشّ الموت رشا، وكل طلقة كانت قادرة على قتل العشرات من تلك الطيور الآمنة. أطلق طلقة فثانية فثالثة فرابعة وتساقطت الخفافىش كالخرق البالية على وجه الماء.

استدار أخی حول فوّهة البئر وتدلّى قلىلا لىتخذ لنفسه وضع إبادة أفضل، مد رجه نحو نتوء صخرى فى حلق البئر لكن قدمه زلّت به فتردّى، رأىته يهوى فدخلت فى طور كابوسى السمات استمر ثانية أو ثانىتىن ثم خرجت منه لأصرخ مذعورا وأتجه نحو الحافة التى تردى منها. انخىت فوق الحافة وصرخت، نادىت باسمه مرة ومرتىن وثلاثا فما سمعت غير الصدى. وجهت مصباح هاتفى المحمول نحو حائط البئر، مررتة مثل قارئ الباركود ابتداء من الأعلى، واصلت الكشف حتى



توقفت عند سطح الماء. كان المنظر قاتلا بكل ما تحمله كلمة القتل
من المعنى، وكنت في غاية الضعف بكل ما تحمله كلمة الضعف من
معنى، لا حبال معي، وحواف البئر مزلقة تغطيها الطحالب. لا حيلة
عندي ولا بصيرة، وأخي يتشبث بالحياة فوق ماء يختلط بالخفافيش
ودماء الخفافيش.





مُكَلِّسَاتِ الصَّالِحِينَ

عندما اقتاده حرس السوق كان حريصا على إخفاء وجهه تحت كمامة كورونا، وحينما يسدل ذؤابة العمّة بينما يلتفت نحو الجهة التي تخلو من الناس حيناً آخر. والناس الذين اجتمعوا هنا تحت مظلة الفضول كانوا بين مصدق ومكذب، وبين فرح بما يرى ومستغرب لما كان، الذين فرحوا أسعدهم كثيرا أن يكون حرس السوق على هذا المستوى من الانتباه والفتنة والجاهزية، أما الذين استغربوا فإنهم عجزوا تماما عن تبرير ما حدث فقد كان تعلقهم به شديدا وكانت ثقتهم فيه لا يشوبها شائبة. حتى حرس السوق - لولا الأدلة القاطعة - ما صدقوا شيئا مما يحدث، لكنها الأدلة والإقرار الذي كتبه معترفا بما بدر منه، موقعا عليه بإمضائه الذي لا يقل مهابة عن توقيع السيد ترامب.

كنت أنا وزوجتي وابنتي من بين الفضوليين المتفرجين على هذا المشهد الحافل بالتناقضات، زوجتي مع الفضوليين الفرحين بما ترى لأن يقظة حرس السوق وفتنتهم وجاهزيتهم أمر يناسب تطلعاتها نحو الصرامة، أما ابنتي فكثيرا ما كانت تثني على العين الحمراء وتصفها دائما بالحارس المجهول على غرار الجندي المجهول. أما أنا - وأصدقكم القول -



فقد كنت في الصف الآخر من هؤلاء الفضوليين، صف المستغربين، ذلك أني قد تعاملت مع الرجل لسنوات طويلة، تعاملت معه وجها لوجه فلم أجد منه ما أكره، ليس ذلك فحسب، بل كنت أرى فيه بقية من السلف الصالح، بل كنت أراه - في أغلب الحالات - ملاكا في ثياب آدمي فهل يُقدِّم الملاك على فِعْلة شنيعة كهذه؟

عندما جاء إلي سوقنا العتيد استأجر دكانا فاخرا وكتب على بابه المغلق: قريبا مكسّرات الصالحين. كان هذا الإعلان مدعاة لتهمك المارة وسائر مرتادي السوق، ومعهم كل الحق في ذلك حيث لا علاقة - إطلاقا - بين المكسرات وبين التقوى، وإلى ذلك فالمكسّرات يتناولها البرّ والفاجر إلا أن يمتنع هوعن البيع لغير الصالحين وهذا أمر لا يمكن تحقيقه إذا لا يدرك بواطن البشر إلا الله. قلت في نفسي - في بداية الأمر - ثم قلت لمن حولي بعد أن كثر الكلام: هذا احد تجّار الدين، يتكسب من وراء ذلك مثل كثيرين في طول الدنيا وعرضها، فالدين والتدين هو القاسم المشترك الأعظم بين كثير من الناس، وليس هناك من أمر يداعب مشاعرهم ويستدر مشاعرهم مثل الدين.

عندما فتح الدكان أمام جمهور المستهلكين كنت من أوائل الزبائن الذين توافدوا عليه، وللحق فقد كنت أتحرق شوقا لرؤيته ومن ثم

تبصيره بأن التستر بالدين هو من صميم الاختيارات القبيحة، وهو ضرب من الكذب على الله وعلى عباد الله في آن معا. دخلت الدكان فوجدت نفسي أمام رجل لم يكن على الصورة التي رسمتها عنه ولذلك بادرت بالسؤال فأدركت أنه هو بشحمه ولحمه. كان حليقا وهذه أول الأدوات التي سقطت من صورته في خيالي كما يسقط سن ناد حتى لم يعد قادرا على التماسك فوق، وكانت العمّة التي يلفها على رأسه عمّة عمل لا عمة عبادة وتصوّف، ولم تكن على جبينه سجدة ليعرف الناس بها كثرة سجوده.

توطدت بيننا العلاقة حتى باتت المكسرات جزءا رئيسيا من مائدتنا، وتعمقت في قلبي محبته وكلما مرّ بنا يوم زادا احترامه عندي. طلب مني إعداد نبذة عن المكسرات وعن فوائدها وأضرارها وكيف التمييز بين المكسرات الصالحة والمكسرات الفاسدة، وطرق كشف المغشوش منها ففرح بما كتبت وطبعه على نفقته وتولى توزيعه على زبائن الدكان. وبالجملة فقد كان شهما كريما أمينا ناصحا وعندما تفاهمت معه حول مكسرات الصالحين قال هي من باب التفاؤل فوجدته على حق. هذه التسمية من شأنها أن ترفع من قيم الخير بين الناس، وأن تعزز



معاني التقوى والصلاح، ثم أنه لو قال مكسرات الليبراليين-مثلا- هل ستبدو هذه التسمية دقيقة، أو ستبدو مريحة أكثر؟

كنت أجادبه أطراف الحديث وكانت أخبار كورونا في بواكيرها الأولى والوبأ لم ينسغ في الأرض بعد، لذلك اتفقنا سويا على عدم الاكتراث به، كُنَّا على قناعة تامة بأن رماحه سوف تتكسر على صخور القرن الواحد والعشرين، صخور التقدم الطبي الذي لم يحدث من قبل، بعضنا - وهذا لم يعد سرًا- ينتظر مفاجأة علمية قد يتمخض عنها إطالة عمر الإنسان وتأجيل موته فكيف نخشى كورونا؟ لو كُنَّا في عصر المقريزي -على سبيل المثال- فإننا سنموت فرقا، أو في زمن طاعون عمواس، أما الآن فلا سبيل للخوف مطلقا. وقد ختمنا حديثنا بالتهكم على الصين، واتفقنا بأن غفوة قد غفاها العملاق الصيني مكنت كورونا من الانتشار وجعلته يعيث فسادا في مدن كبيرة مثل مدينة ووهان.

هكذا كنا نعيش وهم عصرنا الحديث وكنا نظن أن حصوننا ستنجينا من عذاب الجائحة، لم نستيقظ إلا على أنين المرضى يتساقطون كأنهم أعجاز نخل خاوية، اجتاحتنا الجائحة وحق بنا ما كنا به من المستهزئين. ارتفعت وتيرة زيارتي لدكان مكسرات الصالحين وارتفعت

في الوقت نفسه وتيرة الكمامات التي تعبر من أمام الدكان. تطورت الأمور بعد ذلك إلى تحديد ساعات البقاء خارج البيت، ثم خلت الشوارع من الناس ولم يعد فيها من أحد سوى كورونا وسيارات توصيل الطلبات التموينية والعلاجية، وأغلق دكان مكسرات الصالحين أبوابه مثله مثل سائر المحلات التجارية، ليس في مدينتنا فحسب، بل في كل مدن العالم وسائر بلداته في حركة نكوص أمام الوباء لا تليق إلا بالقرون الغابرات.

قررت زيارته في بيته بعد أن باعدت بيننا ظروف الحجر الصحي، وهو بالنسبة لي ليس مجرد بائع مكسرات، بل هو مجموعة إنسان كما ينطق الهوى، وهو قريب من بيتي، لا يفصل بيني وبينه إلا اتباع وصايا السلطات الصحية، وهي وصايا مقدور عليها: كمامة وتعقيم وتباعد في المقاعد، لذلك مكنت وجهي تحت الكمامة جيدا وأغرقت باطن كفي وظاهره بماء التعقيم وذهبت. لقد بث همه وشكواه في تلك الليلة، كانت مخاوفه حقيقية، فالمكسرات سريعة العطب، ولا حلّ لذلك إلا في حركة البيع فالمأكولات جميعها مثل ماء النهر، النهر من غير المنابع يجف ماؤه ومن غير المصببات يغدو آسنا. اتفقنا على

ذلك غير أننا لم ننس أن سلامة الناس مقدمة على سلامة ما عداه حتى ولو كان - ذلك العدا- موادا غذائية.

بعد أيام أقدم على زيارة عاجلة للدكان، استغل فترة السماح فذهب وفتح الباب بصورة غير كاملة. توجه نحو أوعية اللوز حيث هي الأقدم بالفعل، تناول حفنة، دقق، تذوّق، ظهرت له بدايات تعفّن ولذلك قرر عزل اللوز بعيدا. توقف أمام أوعية البندق، تناول حفنة، دقق، تذوّق، ظهرت له بدايات تعفّن أيضا. اقترب من التين المجفف، انحنى وتفحص العبوات جيدا وعندما رفع منها واحده رأى السوس رأي العين. ابتلع ريقه وظهرت الصدمة عروقا على جبينه، ترك كل شيء في مكانه ثم تراجع للوراء وجلس على الكرسي، فكّر بعض الوقت، جال بنظره في جنبات الدكان، نهض وتقدم صوب الرفّ الأدنى واتكأ عليه، سبّح وحوقل ثم قرّر. المسألة تحتاج إلى أمرين: التفرغ لساعات طويلة وبعض المساعدين ثم خطوتين: عزل الكميات الخربة وحفظ السليمة بطريقة أفضل.

ظهرت في أفق كورونا المحلي بوادر انفراج فتناقصت الإصابات وبدا الحال أكثر أمنا، ومع تلك البوادر وذلك التناقص توسعت السلطات الصحية في الانفتاح، انفراج يسير لكنه أعاد مكسرات



الصالحين إلى المعتكف ففتحت أبوابها للناس وعاد صاحبها بعمته التي تجعله يبدو وكأنه من عرب مدغشقر أو عرب زنجبار. كنت من أول الزائرين غير أن الدكان لم يعد كما كان، ولا وجه صاحبي أيضا عاد كما كان، ولا حركة البيع عادت إلى وتيرتها. قال لي بأسى: أنت أول زائر منذ رجعتنا ولم يدخل من هذا الباب أحد سواك. ران علينا الصمت برهة ثم اعتدل وأضاف: الناس في ظرفهم الراهن معنيون بأمرين: ضروريات الغذاء وضروريات الدواء أما المكسرات فلا مكان لها في سلّة الجائحة. قلت له مخففا: لا مكان لها حتى وإن كانت مكسرات الصالحين؟ رد بسرعة مؤكدا: لا مكان لها حتى وإن كانت مكسرات الصالحين.

عاد فيروس كورونا إلى الانتشار ثانية، يبدو أن بؤادر الانفراج التي مضت قد أغرت الناس بالانطلاق بعيدا عن قواعد الاحتراز الثلاث فعاود الشر المستطير نشاطه. ومدينتنا على وجه الخصوص شهدت نشاطا فيروسيا لم تشهده المدائن المجاورة، لذلك وضعت السلطات الصحية خطوطا حمراء تحت اسم مدينتنا ثم فرضت إغلاقا كاملا علينا وعلى سوقنا العتيق، أظلمت المدينة وأظلم الحي بكامله وخبث أنوار السيارات واحتجبت مكسرات الصالحين ثانية فناهت خطاي عن

خُطى صديقي بائع المكسرات، حتى هاتفه الجوال كان مغلقا على غير عاداته. توجست شرا من وراء ذلك الموت السريري لهاتفه الجوال غير أنه فاجأني بزيارة، نعم زارني في بيتي بعد أن لبس لامة الحرب وتدرع بالكمامة ورأيته من خلال العين السحرية وكأنه - والكمامة على فمه - العم بطوط الذي كنت أقرأ مغامراته في ميعة صباي.

جلس ومسافة تفصل بيننا، قال لي: سأرمي كل بضاعتي في البحر ثم أقذف بنفسي وراءها، ضحكت لهذه الفكرة فقررت أن أعزف على نفس الوتر من قبيل الدعابة. قلت: ولماذا تقذف بنفسك وراءها، أرم المكسرات وعد إلينا، ضحك وضحكت ثم واصلت المزاح فقلت: أو اترك مكسراتك أمانة عندي وانتحر بعد ذلك. ضحك وضحكت فتجرات - تحت مظلة الانبساط الجاري - على اقتراح لم يكثر له كثيرا، قلت له لماذا لا تعلن عن خدمة التوصيل؟ هنا تغير الحال، لم يضحك أبدا، بل حول الموقف برمته إلى هجوم جارف على الغرب، وعلى أمريكا، وعلى مناعة القطيع. كان متبرما من هشاشة الغرب أمام كورونا، كيف تراجعت هذه الحضارات الزائفة أمام كورونا رغم تقنياتها ومستشفياتها وأمصالها، ورغم نوبل وجوائزها، ورغم عشرات المنظمات



الصحية والاجتماعية. كيف تركع بهذا الضعف المشين أمام كوفيد-

١٩ وكيف تختصر هوانها في كلمتي: مناعة القطيع!؟

كان الإغلاق مؤلماً وله نتائج خطيرة، ليس في مدينتنا الوداعة فحسب، بل في كل مكان، لذلك رأت السلطات الصحية أن تعيد الحياة لطبيعتها، تعود تدريجياً مع التزام جانب الحذر. لقد أشركت الناس في مواجهة الكارثة وساعد في ذلك أن الإصابات بدأت تميل للانحسار، وعندما خَرَجْتُ للمرة الأولى بعد الإغلاق الكبير بادرت بزيارة دكان صديقي، وصلت والسوق على قدم وساق إلا هو، كان مغلقاً بإحكام فحامت طيور الشك فوق رأسي لكنني تذرعت بالأناة. قلت لعله قد انشغل ولعله قد لجأ إلى فكرة التوصيل فوجد من ورائها خيراً. حاولت معه مهاتفة دون جدوى، كررت الزيارة في اليوم التالي والذي يليه وفي كل مرة كان الدكان يزداد إعراضاً والهاتف يزداد صمتاً.

في اليوم التالي وجدت دكانه مشرعاً، ووجدته في الداخل يعتمر عمته المشغولة بخيوط صفراء فاقع لونها، كان سعيداً وبضاعته معروضة بصورة أجمل يتحدث معي برحابة صدر وكأنه لم يغب أياماً. تجاذبت معه قليلاً من الحديث ثم ودعته، ودعته ليهتم بزبائنه الذين كان يزدحم بهم المحل. ما عدت إليه بعدها فأمره قد انتظمت وإيقاع الحياة في



دكان قد انتظم. لم تقع عيناي عليه إلا وهو في قبضة حرس السوق
يجتهد في إخفاء وجهه تحت كمامة كورونا، وحينما يسدل ذؤابة العمّة
بينما يلتفت نحو الجهة التي تخلو من الناس حيناً آخر.

كنت وزوجتي وابنتي من بين الفضوليين المتفرجين على هذا
المشهد الحافل بالتناقضات، زوجتي مع الفضوليين الفرحين بما ترى لأن
يقظة حرس السوق وفطنتهم وجاهزيتهم أمر يناسب تطلعاتها نحو
الصرامة، أما ابنتي فكثيراً ما كانت تثني على العين الحمراء وتصفها دائماً
بالحارس المجهول على غرار الجندي المجهول. أما أنا - وأصدقكم القول -
فقد كنت في الصف الآخر من هؤلاء الفضوليين، صف المستغربين،
ذلك أنني قد تعاملت مع الرجل لسنوات طويلة كان خلالها ملاكاً في
ثياب آدمي فهل يُقدِّم الملاك على فِعلة شنيعة كهذه؟

كورونا على رقعة شطرنج

أمضيت خمسة أيام أعلم ابني الأكبر لعبة الشطرنج فلم أفجح، خمسة أيام بواقع سبع ساعات كل يوم، خمسة وثلاثون ساعة أضعتها في تعليمه الشطرنج دون جدوى، هو لا يريد أن يتعلم، بل يكره الشطرنج علاوة على ذلك، ومن يكره فنا من الفنون فلن يتعلمه أبداً، مهما كان انضباط المدرسة ومهما كان حذق المعلم، وقديما قالوا: لا يتعلم العلم سوى راغب أو راهب. الراغب هو من يجب ذلك العلم ويعشقه ويتحرق شوقاً لتعلمه، أما الراهب فهو من تأخذه الرهبة، خوفاً من المعلم أو من الأب، وأنا هنا المعلم والأب ولم ولن أشيع الرهبة في نفس ابني. أتمنى أن يتعلم لحاجتي الماسة إلى لاعب مقابل، لكنني أردد دائماً، في هذا وفي سواه: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

لقد اعتدت منذ سنوات طويلة على ارتياد النادي، نادي الحي، وفيه ركن للشطرنج، هذا الركن كان ملاذاً حميماً لي منذ أن تقاعدت من وظيفتي في بلدية المدينة، كنت أمضي فيه الساعات الطوال دون كلل أو ملل. أخرج من بيتي بعد صلاة العصر سيرا على الأقدام دون أن أرفع عيني عن خيط الطريق حتى أصل، فإذا وصلت مكثت في ذلك

الركن الأسر حتى ساعة متأخرة من الليل. أنازل أقراني وأتفوق عليهم في كل مرة، ابتكر النقلات وأصمم الفخاخ وأتنطس أخبار الكبار وأتعلم منهم، وكثيرا ما كنت أقيم دورات مجانية لتعليم الشطرنج للصغار والناشئة، كانت آخر مرة أقمناها منذ عام فقط وجاء المحافظ وكبار رجالات الحي لتحية المتخرجين.

منذ أشهر فقط حلت بساحتنا جائحة كورونا، وأعلنت السلطات الصحية سلسلة من الإجراءات الاحترازية منها نظافة اليدين وارتداء الكمامة والقفاز. لقد قمت بتأمين ذلك كله على نفقتي الخاصة، ليبقى نادي الحي مفتوحا، ويبقى ركن الشطرنج عامرا بالأحبة. وأضفت - على نفقتي أيضا- عدة قنائن ملئت معقما ليبقى المكان في الأمان المطلوب، وكنت فوق ذلك كله أقوم بدور الرقيب الصحي فلا أترك أحدا يدخل أو يخرج دون تعقيم، ولا أدع أحدا يدخل علينا دون قفاز وكمامة. آمل ألا يظن أحدكم أن هذا أمر يسير، كلا، هناك بعض الناس لا يريد أن يسلك طريقا آمنة، لا تعنيه صحته ولا صحة الآخرين، ولكني لهم بالمرصاد.

تطورت الأمور بعد ذلك وبدأت غضبة كورونا تزداد توحشا، زاد عدد الموتى وارتفعت وتيرة الإصابات فارتفعت معها وتيرة

الإجراءات الاحترازية. في يوم من تلك الأيام تسللت إلى النادي رغم الإغلاق الذي ألجم المدينة، مكثت في النادي عدة ساعات ولم يحضر أحد. هاتفت بعضهم، أقنعتهم بالحضور وقلت إن النادي بعيد عن عين السلطات الصحية، وإلى ذلك فإننا قوامون على احتياطات السلامة وكأنا سلطات صحية أيضا. تقاطر الأحبة في اليوم التالي حتى قام النادي على ساقه مثلما كان وأقوم، غير أن السلطات قد طلبت منا الالتزام بقواعد الإغلاق والعودة إلى منازلنا والبقاء فيها ومتابعة التعليمات. خجلنا مما اقترفت أيدينا، وعاد لنا وعينا ثانية، فلزمتنا بيوتنا ولم نغادرها إلا بسُلطان.

العزلة لها ما يبررها، والإغلاق له ما يبرره، ومنع التجول ليلا وطرفا من النهار له ما يبرره، لكن الشطرنج الذي تماشج مع دمي وعصبي يقرع في رأسي مثل الناقوس، يلح عليّ، يدفعني دفعا للبحث عن لاعب آخر. كيف يمكن الوصول إلى لاعب آخر في ظل هذه العزلة؟ بالكاد نخرج عند السادسة صباحا بحثا عن خبز وأرز ثم نعود وقد أرهقنا الحرّ والرطوبة والتباعد أمام المخازن التجارية. نعود وماهي إلا ساعة أو ساعتين ويعود منع التجول، فمتى أجد لاعبا أنازله على رقعة شطرنج؟ حتى الزيارات المنزلية - ولو تحايلنا على أنفسنا- تظل

مجازفة، الواحد منا لا يستطيع أن يضمن سلامته هو فكيف يثق في سلامة الآخرين؟

فكرت ذات صباح ومكعبات الفراغ من فوقي ومن تحتي، فكرت ثم حدثت نفسي، قلت: هذه الحديقة المواجهة لبيتي حديقة غناء واسعة، فيها أركان ظليلة، بل حتى أشجارها وارفة الظل وكأنما الظل فراشا خلقه الله لها. ماذا لو حملت الشطرنج معي وتوكلت على الله ثم نزلت إليها- في غير أوقات المنع طبعاً- أنزل إليها فإذا وصلت وافترشت ظلها وحشائشها، وجلست، واستقر بي المقام، هاتفت أحدهم واقترحت عليه أن يأتي لنجلس سوياً في الحديقة ونتقابل حول الرقعة الفاتنة. أنا لا أرى في ذلك أدنى غضاضة، خاصة أن الوقت هو وقت السماح بالتجوّل، وأيضاً سوف نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة كورونا بما لدينا من الكمادات والقفازات والمعقمات وحسن أولئك رفيقاً.

طرأت على بالي فكرة أخرى، وجهنمية هذه المرة، طرأت حين سألت نفسي: ما الذي يمنع لو كان اللاعب هو شريكى أو شريكتي في البيت وفي الفراش وفي عموم الحياة؟ وبالعربي - كما يقولون- ما لذي يمنع أن تلعب معي زوجتي؟ لا شيء - من وجهة نظري- يمنع من

ذلك. صحيح هي لا تجيد لعبة الشطرنج، بل لا تعرف عنه شيئا لا من بعيد ولا من قريب وأنا بذلك زعيم، لكن هذا لا يعني أنها لن تتعلم. كل الذين حضروا دوراتي التدريبية كانوا هكذا، لا يعرفون عنه شيئا على الإطلاق. قمنا بتدريبهم وفي غضون أيام كان كل واحد منهم يقول أنا ماغنوس كارلسن. لن يدب اليأس إلى قلبي وسوف أعلم زوجتي كيف تلعب الشطرنج باحترافية عالية، وكل ذلك لتكون ندا لي أنازله في كل حين.

فاتحت زوجتي في هذا الأمر، فاتحتها ثم يا خيل الله اركبي. فتحت عليّ أبواب جهنم بلا هوادة، ورمتني بكل ما تملك من رصاصات ومن سهام ومن حجارة. ابتلعت ريقى مرتين قبل أن أقول لها: على رسلك يا أمة الله، لكنها لم تراعي ذلك، بل قالت متسائلة: ضاعت حياتك خلف هذه الرقعة البلهاء، وتريد أن تضيع حياتي خلفها أيضا؟ أنت متقاعد من عملك وكان عليك أن تجعل من التقاعد بداية حياة جديدة، تجعل منه مشوارا جديدا مع الإنجاز بدلا من قتل الساعات وراء أفيال وقلاع ينسجها خيال لا نفع فيه. كررت الرجاء ثانية: يا أمة الله، امنحيني سمعك لبعض الوقت، وعندما قلت لها: أرجوك. قالت: قل، ولكن تأكد أنه لا وقت عندي أضيعه في شطرنج.

يئسْتُ منها يأس إبليس من الجنة! هي لم تتفهم نبل مقصدي
ولا حقيقة حاجتي، ثم إن التقاعد الذي تثرثر حوله ما هو إلا هبة الحياة
للموظفين كي يرتاحوا بعد سنوات الاستيقاظ الباكر والهجم والغم الذي
يسكن الأفئدة كما يسكن السوس جوف حبة التمر. حكيمة عصرها
تنصح بأن أضع بقية عمري تحت عجلات قطار، أو أن أشعل النار
في شعيراتي البيض، أو أن أرهن المزيد من السنين لمدير أرعن لا يرحمني
ولا يرقب فيّ إلا ولا ذمة، يسومني سوء العذاب. لقد أغضبتني وآمتني
في آن معا، ومع ذلك فلن أغضب منها ولن أتألم تقديرا لسنواتها الماضية
معي. لقد عاشت معي أصعب سنوات العمر، قاسمتني شظف العيش
ومرارة الأيام ولا يليق بي أن أقابل ذلك بالغضب. وعلى كل حال فهي
ليست معنية برغباتي التي لا تروق لها أو لا تناسبها، وعلي أن أحصر
جنوني مع مجانين مثلي.

وما دام الأمر لن يقوم به معي سوى المجانين فقد قررت العودة
إلى فكري السابقة، فكرة الحديقة التي حاولت استبدالها بتدريب زوجتي
والبقاء في البيت، لذلك لا بد مما ليس منه بد. كورونا يضيق الخناق
عليّ مثل كل الناس ولا متنفس لي إلا على رقعة الشطرنج ولم يعد لي
من سبيل إلا الحديقة. دخلت المطبخ حيث أجد زوجتي عادة، اعتذرت



منها بشدة، وطلبت منها أن تتفهم علاقتي بالشطرنج، حتى لو تعاملت
معي كمريض مصاب بداء الشطرنج. وعندما انفرجت أسارير وجهها
أدركت أنها قد تجاوزت الموقف، ووجدت الأجواء مهيأة لتعرف خطتي
الجديدة. قالت أنت تسلم نفسك لفيروس كورونا، تقدم نفسك لقمة
سائغة له. قلت: لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، والأعمار بيد الله،
ثم اطلعتها على لامة الحرب التي معي، الكمامة والقفاز وسائل التعقيم.
نظرت لكل ذلك نظرة خاطفة ثم قالت: حماك الله من كورونا وشفاك
من الشطرنج.

لبست لامة الحرب وأخذت كفي وحنوطي وحقيبة الشطرنج ثم
نزلت إلى الحديقة، نزلت مع بداية وقت السماح بالتجول، اخترت ظلا
ظليلا وافترشته ثم نصبت بضاعتي. حرصت على المكان الأفضل
والجلسة الأنسب، وحرصت على بسط رقعة الشطرنج على بعد يناسب
شروط التباعد. أخرجت هاتفي الجوال وبدأت بالصديق الصدوق
والحبُّ الأثير، كان هاتفه يرد برسالة توعية مسجلة تحث على التباعد،
وظل يكرر ويكرر حتى سَكَتْ. انتقلت إلى رقم صديق آخر فلم أجد
إلا نعمة ممتدة، بدت لي تلك النعمة وكأنها تفتش عن صديقي ذاك في
صحراء الربع الخالي، أو تنهزه نهما مثل نهم الدلاء في بئر سحيق. غيّرت

الاتجاه إلى صديق ثالث فلم يرد، وإلى رابع كان هاتفه مغلقا، وإلى خامس وسادس وسابع فما ظفرت إلا بالمزيد من الطنين.

قررت التوقف من جانبي وانتظر مبادرة من أي منهم، من كان نائما فسوف يستيقظ فيجد اتصالا مني، ومن كان غافلا فسوف يعود من غفلته ويبادر بالاتصال، ومن كان بعيدا فسوف يتفرغ ويرى ويتصل. انتظرت وانتظرت حتى زحف الظل وتركني بلا فراش فزحفت نحوه. طال انتظاري حتى ابتعد الظل ثانية، قلت: إني لا حب الآفلين. لن أطارد هذا الظل الذي يشبه حياتنا التي لا تدوم على حال، قلت ذلك وعمدت خيمة في طرف الحديقة، وقبل أن أجلس فيها سمعت صوتا ينادي: يا عم. استدرت على الفور فإذا بي وجها لوجه أمام مفتش الصحة، أكد لي - بلطف فاتن- أن الوقت القائم الآن متاح فقط للضرورات: تبضع حاجيات البيت، شراء دواء، زيارة طبيب، أما الحدايق فليس وقتها الآن. حاولت - عبثا- أن أقنعه بما أنا عليه من التحرز والاحتياط لكنه لم يقبل لي عذرا.

عدت إلى بيتي خالي الوفاض، حتى خفي حنين ما عدت بهما، غير أنني قنعت من الغنيمة بالإياب. قرأت شفقة ما في عيني زوجتي وهي تستقبل جثمانني الطاهر! قالت: علمني الشطرنج، ما دمت حفيّا



به إلى هذه الدرجة فعلمي، علمني وسوف أتعلم وأتقن اللعب وأنازلك
منازلة الند للند. خلعت نظارتي مشدوها ثم سألت بحب: صحيح؟
قالت: الأمر لله، وما ذا علي أن أعمل؟ قلت - وكأني في مسلسل
تلفزيوني - هي الشفقة إذن يا بعلي؟ وعندما أوشكت أن أواصل الدور
فأغضب وأغادر وأصفق بالباب خلفي، استعدت بالله من الشيطان
الرجيم وقلت لها: جزاك الله خيرا، إن لم تشملني منك شفقة ورحمة فمن
سيشفق ومن سيرحم؟

بدأت الدورة التدريبية وانضم إلينا ابنا الأصغر، كان انضمامه لنا برغبته
الخالصة وبتزكية من أمه. سارت الدورة لكن سيرها كان بطيئا، والأدهى
والأمر من ذلك أنه سير يشنته الجدل العقيم. توقفت زوجتي عند الفيل
وامتنعت عن تسميته فيلا، تقول هذا منارة أو عمود أو أي شيء إلا
أن يكون فيلا.

تحمله الفيل في يدها، تفركه بالسبابة والإبهام ثم تقول: ها هو، أي فيل
رأيت في حياتك بهذا الشكل؟ قلت لها على رسلك يا أمة الله، هذه
تسميات قديمة من أيام العجم والهنود وهم أهل الشطرنج ومخترعيه.
ردت ببرود وهي تقلب الفيل بين أصابعها: وإذا سماه العجم والهنود فيلا
هل نسمي كل عمود فيلا وكل منارة فيلا؟

كانت زوجتي تغيب مرة بعد أخرى، تارة تغيب بعذر مقبول
وأخرى تغيب بعذر غير مقبول، ثم تطور الغياب إلى إهمال للواجبات،
بينما كان ابنا الأصغر جادا في الحضور، مهتما بالواجبات، وكنت أرى
فيه - أحيانا- بوادر نبوغ وإلهام عجيبين، لذلك أعطيته جل اهتمامي
وتركت لزوجتي الحبل والغارب معا. ما لبثت زوجتي بعد حين أن
انسحبت تماما، تظاهرت بالأسف لذلك لكنني كنت أخفي سعادة
كبيرة بما حدث فهي- وللحق- جعلت من نفسها حارسا للمنطق في
لعبة تقترب من المنطق وتبتعد عنه أصلا. وفي الوقت نفسه فإن ابتعادها
عنا سوف يتيح لي فرصة كبيرة في تعليم إبني قواعد الشطرنج وأحكامه
وفنونه فقد وجدت فيه ضالتي ووجدت فيه "أنا" أتخلق من جديد.

لعبنا منازلة تدريبية تعمدت فيها أن يهزمني، ثم منازلة أخرى
تعمدت أن يهزمني فيها أيضا، هذه تكتيكات مدرب فذ، لا بد من بناء
اللاعب من الداخل مثل بنائك له من الخارج ولذلك تعمدت الهزيمة.
وكذلك فعلت في المباراة التي تسبق المباراة الختامية، أعني المباراة الختامية
التي ستكون على رؤوس الأشهاد والتي سوف تحدد له مستواه والدرجة
التي يستحقها في هذه الدورة التدريبية.



نازلته في المباراة الختامية، وبعد عدة نقلات متبادلة قال لي كش ملك، ظننته يمزح، نظرت في الرقعة بين أيدينا، تأملتھا جيدا، يا إلهي! كل بيدق من بيادقه يقول لي كش ملك. لقد انتصر بالفعل لكني رفضت المنازلة وطلبت الإعادة، طلبت الإعادة لأن في الأمر شيء ما. كيف ينتصر ولما يعجم عوده بعد؟ هل حاول خداعي مثلاً؟ لا بد من الإعادة ليتضح الأمر، أفهمته ذلك وبينت له أن الفائدة من الإعادة ستعود عليه شخصياً وأعدنا الكرة. أعدنا المنازلة وبعد عدة نقلات فاجأني كش ملك. ضربت بها عرض الحائط وطلبت الإعادة، قلت له لا بد أن تثري تجربتك، وفي داخلي أقسمت لئن انتصرت لأهجرن الشطرنج أبداً. أعادنا المنازلة، تبادلنا النقلات، وفي لحظة غير محسوبة أطلق عليّ رصاصته القاتلة: كِشْ مَلِكْ.





الجرادة العملاقة

تساقط رفاق دربه واحدا بعد الآخر، تساقطوا كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف، أسقطهم كورونا، أجهز عليهم في أوقات متفرقة لكنها متلاحقة لم تتجاوز في حدوثها أربعاً وعشرين ساعة، أجهز عليهم وكأنه ينفذ فيهم أحكاماً بالإعدام. أربع وعشرون ساعة وارينا فيها الأربعة تربة الصمت، أسقطهم كورونا وبقي رفيقهم الخامس، جدي الحبيب. جدي لم يميت ولم تنتقل إليه عدوى كورونا، لكنه دخل في غيبوبة حملناه بعدها إلى مستشفى المدينة العام.

حتى ليلة البارحة كان يعيش حياته العادية، يأكل ويشرب ويتنفس الثواني ويضحك ويخاصم ويمدح ويشتم. ليلة البارحة - وأنا بجواره- كان يحصي أبناء جيله الذين ماتوا تحت سنابك خيل كورونا. عد الثلاثة واحدا بعد الآخر، أشاد بهم فردا فردا، عدد مآثرهم ولم ينس ذكرياته معهم. واليوم، وما أن جاءه خبر وفاة رابع أربعة من أصدقائه حتى تأثر، تأثر لذلك كثيرا وبان على وجهه ما كان يحاول إخفائه من التأثر ثم ردد وكأنه يرى شيئا لا نراه: الإن حصحص الحق، أشهد ألا

إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، قالها بلسان مبین ثم دخل في غيبوبة.

هو جدي لأمي، وقد تعلقت به كثيرا ومنذ سنوات طويله، ألفتُ جميع حالاته، في سروره وفي ضيقه، عندما يرضى وعندما يغضب، جادا كان أم مازحا. وهو بدوره كان يأنس إلي ويأنس بي، ومذ كنت صغيرا كان يحتفي بي ويصحبني معه أينما ذهب، وليس سرا إن قلت لكم أنني كنت أقضي معه وقتا يزيد كثيرا عن الوقت الذي أقضيه مع أمي وأبي. ومجلسه عامر بالناس، لا يكاد يخلو منهم، فهو حكيم القرية وأحد المعمرين الخمسة الذين يعود إليهم الناس في كل شيء، لكنه يتميز عنهم بمعرفته الجيدة لحساب الجُمَّل وبه ارتفعت قامته عن مجاليه، لذا اعتدت على تدوين حركاته وسكناته وكلماته وإيماءاته، ولازمته مثل ظله.

منذ أن أوصلناه للمستشفى ومنذ أن استلمه منا الفريق الطبي المعالج لم نعد نراه إلا من وراء حجاب، أخذوه وتركونا في غرفة انتظار باردة جدا، وبعد طول انتظار جاء من يخبرنا أنه تحت العناية المركزة. قال لنا: عنده نقص في كذا وكذا ويعاني من كذا وكذا وسوف يبقى

تحت المعاينة الدقيقة إلى أن تتحسن حالته. قال لنا ذلك ثم أعطاني جدولاً بمواعيد الزيارة وبطاقة لدخول جناح العناية المركزة.

عندما جئنا لزيارته في موعد الزيارة وجدناه في غرفة ضيقة، تتكالب عليه فيها الأجهزة وقد فصلوا بينه وبين الزائرين بلوح من البلور. مددوه على ظهره فوق السرير وأوصلوا بجسده أسلاكاً وأنايب كثيرة، وحوله شاشات مثل شاشات التلفزيون أو الحاسب الآلي. وفي كل زيارة كنت أراه عبر تلك النافذة الشفافة وهو مغمض العينين مغلق الفم شامخ بأنفه يبدو لي في كل مرة أراه وكأنه يلقي خطاباً.

قرينتنا محظوظة برجال مثل هؤلاء الأربعة، الأربعة الذين افترسهم كورونا خلال أربع وعشرين ساعة مضت. وبقدر ما كانت محظوظة بهم فهي تخسرهم الآن خسارة فادحة، تدفنهم في المقبرة الصامتة بعد أن ملأوا فضاءات القرية كلاماً وأفعالا وأضف: ضجيجاً؛ نعم كل هذا وزيادة، فقد كانوا ينسجون ثواني الحياة في قرينتنا ثانية بعد ثانية، ولهم على كل صخر بصمة، وفوق كل تراب خطوة، وفي كل طريق عقب ورائحة.

الفقيد الأول كان سيّد القمح بلا منازع، لو كنا في عصر التآليه لجعلوه إله القمح، فإن له من الخبرة في زراعة القمح - وعموم المحاصيل -

ما يجعله في وجه أسئلة الناس واستفساراتهم، ومع أن القمح قد تراجع كثيرا أمام الأرز - منافسه الرخو- إلا أن تاريخ القمح وصورته في مخيال العامة والخاصة ظلت مقدّرة محترمة، وبالتالي فإن مكانة سيد القمح ظلت - تبعا لذلك - مقدرة محترمة.

أما الفقيه الثاني فقد كان حداد القرية وصانع أدواتها المعدنية، مازلنا حتى الآن نقرأ على باب بيته قوله تعالى: " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد" كتبها له الفقيه الثالث بحجارة بيضاء على حائط من حجارة قرمزية. هو أيضا قتلته الصناعات العالمية قبل أن يجهز عليه كورونا، لكنه بقي عظيما لأن حرفته كانت عظيمة في المخيال العام للقرية ولأن له بصمة باقية على كل باب من أبواب القرية وفوق كل نافذة من نوافذها.

الفقيه الثالث كان قلم القرية وما يسطرون، كاتب القرية، كتب في مطلع حياته وثائق تملك حفظت للناس أملاكهم، وبقيت في أيديهم حتى بعد شيوع الوثائق الرسمية، وما تزال باقية في إضبارات خاصة تتمازج مع خيطان البعشران التي تحميها من الأرضة كما يحمي الخنوط المصري جثث الفراغة. ومع أن برنامج الورد قد أصبح يكتب للناس ما يشتهون إلا أن مكانة الفقيه ماتزال ناصعة البياض مثل ثيابه، منتصبة



مثل قامته، ذلك أن معظم عقود القرآن لجيل مضى قد كتبها وكان هو بنفسه واحدا من الشهود، لذلك قلت في لحظة وفاته: إن هذا الرجل وإن ابتلغته مقابر الصمت إلا أن حبر أقلامه قد عطر تاريخ القرية، وحبس أحلامها في قنابن من بلور دون أن تتبدد في الهواء.

الفقيد الرابع، آخر الأربعة موتا، هو جمال القرية الذي كان يقطع القفار وعلى ظهر بعيره بضائع مما يحب الناس اقتناؤه. الساتان الذي شاع بين الناس يخيطنون منه ثياب الفرحة، القصب الذي يزين الثياب فتبدو وكأنها قد خرجت للتو من قلب الشمس، العمائم الموشاة بالحريز، حتى الحلاوى الطحينية كان يأتي بها من المدينة القريبة، وحلويات الأطفال وألعابهم. كل لعبة أدخلت السرور على قلبي وصلت إليّ من تحت يد هذا الرجل. رجل ظل يسعى في سبيل البهجة، يصنع الجمال أو يساهم في صنعه، يقيم مهرجانات الفرحة في طول قرينتنا وعرضها وها هو اليوم في المقبرة الصامتة الكئيبة.

نعم وألف ألف نعم كانت قرينتنا محظوظة بهؤلاء الأربعة العظام الذين تم دفنهم، وهي محظوظة - أيضا وبشكل استثنائي - برجل في قامته جدّي، هو رجل ثاقب الفكر بعيد النظر، ينوب دائما عن مجلس القضاء وأحيانا ينوب عن الشرطة أو يقوم مقامها بمعرفة تامة من جانب

السلطات، وقليلًا ما كانت تصعد قضايا القرية إلى الجهات الرسمية - من قضاء وشرطة مثلاً- والناس هنا لا يجدون غضاضة في الاحتكام إليه ولا في النزول عند حكمه، وهو- في الوقت نفسه- مَيَّال للعدل لا ينحاز لأحد، حتى لو كان من ذويه أو من أصدقائه.

ليس ذلك فحسب، بل إن براعته في الكلام قد جعلته يتصدر المجالس متكلمًا ويعتلي المنصات خطيبًا وهو لم يؤتى من العلم إلا قليلًا. البشر - كل البشر- مولعون بالبيان ولا يفسحون مجالسهم إلا للخطيب الحاذق. أهل قريتنا كذلك، فإذا ذهبوا إلى قرية أخرى - لأي سبب- فلا يتقدمهم إلا متكلم حاذق، وكان جدى - هذا الغائب عن الوعي- هو ذلك المتكلم الحاذق، يتكلم باسم القرية ويمثلها في كل محفل خطابي وينوب عنها في أي مناوشة كلامية قد تقود إليها ظروف القرية وأحوال التدافع المألوفة بين الناس.

غير أن المهارة العظيمة التي حاز بها جدِّي قصب السبق على أقرانه هي مهارة حساب الجُمَّل، وهي من مهارات الأولين الغابرين، تقوم على وضع قيمة عددية لكل حرف أبجدي، فالألف قيمته واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة والذال أربعة، فإذا وصلت عشرة - وهو القيمة العددية لحرف الياء- فإنك تعطي لحرف الكاف- وهو الذي يلي



حرف الحاء - رقم عشرين، ثم تتزايد بقفزة عشرية على نحو ثلاثين لحرف اللام وأربعين لحرف الميم، وهكذا حتى تصل المائة وهو القيمة العددية لحرف القاف، ثم تتزايد الأرقام بقفزة مئوية على نحو مائتين لحرف الراء، وثلاثمائة لحرف الشين، حتى تتوقف عند آخر حرف في الترتيب الأبجدي وهو حرف الغين وقيمته العددية ألف.

هذا الجزء من حساب الجُمَّل يسير جدا، تعلمته من جدي في جلسة أو جلستين، لكن مالم أحط به علما هو وظائف هذا الحساب. لحساب الجُمَّل وظائف تتعلق بحياة الناس اليومية. جدي كان يساعد أهل القرية - بواسطة هذا الحساب - في اختيار أسماء باردة لمواليدهم، ويساعدهم في اختيار ساعة سعد يتم فيها عقد القران، أو يوم سعد يتم فيه الزفاف. وحتى ساعة السعد المناسبة لبذر البذور، ويوم السعد المناسب لسقيها، ويوم السعد المناسب لحصادها.

أظنه يربط بين تلك القيم العددية للحروف وبين مطالع القمر والنجوم، مثلما يفعل البرّاجون في هذا الزمان. هي أمور تقوم على تراث ضخمة من التوقعات والحدس، تناسب البسطاء كثيرا لكني ما وجدت فيها ملامذا في يوم من الأيام، ولا أقمت لها أدنى اعتبار، لكنها كانت تداوي قلوب البسطاء، تمسح دموعهم، تشبع جوعهم، تكسي عاريهم،

حتى وإن لم يجدوا طعاما أو كساء، ولكنها منى. إن تكن حقا تكن أحسن المنى وإلا فقد عاشوا بها زمنا حلوا.

هذه المهارة قد جعلت من بيت جدّي عيادة مثل عيادة الطبيب، رأيت فيها وجوه أهل القرية جميعا، شيبا وشبانا نساء ورجالا. حدقوا الساعات الطوال في وجه جدي، انتظروا كل كلمة تخرج من فمه بلهفة من ينتظر خروج مال من فم آلة الصرف البنكي. أسعدهم كثيرا، وما نزلت دموع من عين أحد منهم إلا أن تكن دموع فرح، وما رأيته إلا حامل بشارات لا تنتهي، وها هو الآن وحيدا لا يرى أحد ولا أحد يراه.

جاءت إليه امرأة تشكي حال وليدها الذي يبكي بلا توقف، ومن غير سبب واضح، لا ينام ولا يترك أمه تنام، يبكي وكأنه ينام على جمر في موقد لا على مهاد وثير. أخذ الطفل من بين يديها ووضعته على حجره، نظر في قسّمات وجهه ثم سألها عن اسم الطفل فأخبرته، أعاد لها الطفل ثانية وبيّن لها أن في اسمه حرارة! ثم تناول قلما وورقة وأجرى حساب الجُمَّل على اسم الطفل، ثم كتب في ورقة أخرى اسمين للطفل غير اسمه وطلبها أن تسميه بواحد منهما وقد فعلت. غيرت اسمه



فتغير حاله، ومنذ تلك اللحظة توقف عن ذلك البكاء المجاني، كيف حصل هذا؟ لا أدري لكنه حدث وعليه أشهد.

عندما مرض أقرانه الأربعة اغتم كثيرا، طلب زيارتهم في المستشفى فأخبرناه عن كورونا وفيرس كورونا وعدوى فيروس كورونا. قبل على مضض، لكنه كان يسأل عنهم مرة كل ساعة، ويسأل عن كورونا: ما هو؟ ما طبيعته؟ كيف اجتاح الدنيا على اتساع مساحتها وتباعد مسافاتهما؟ وفي كل مرة كنت أعطيه جوابا، كنت أبحث جيدا لتصل إليه المعلومات المقتضبة الصحيحة الدقيقة فهو رجل مختلف، وفي كل مرة كان يحدق في نقطة عمياء كأنما يقرأ شيئا في فضاء المكان الذي يجلس فيه.

لما أخبرته بوفاة صاحبه الفلاح بكى، بكى من غير نشيج أو نحيب، تساقطت دموعه وسالت على وجنتيه كما يسيل الندى على زجاج النافذة. ولما مات صاحبه الحداد والكاتب في لحظتين متقاربتين أخبرته عنهما بعد تردد، ورأيت دموعه مرة ثانية، ثم رأيتها مرة ثالثة عندما نقلت إليه خبر وفاة صاحبه الجمال. في هذه المرة سمعت له نشيجا خفيفا ورأيته يقاوم حزنا يوشك أن يفجر في صدره مثل لغم مدفون.



ناولته منديلا، وبعد أن جفّ وجنتيه قال لي اقترب. اقتربت حتى دنوت منه كثيرا، قال لي: عندما كنت غرّا يافعا بحثت كثيرا عن طالعي، كنت في تلك الحقبة من المغرمين بكشف أستار الغيب. نصحني أبي بتجنب هذا فالغيب لا يعلمه إلا الله، لكنني تماديت في الغيّ وعكفت على مطالعة كتب النجوم، قال لي صديق أحبه لو اطلعت على الغيب لتمنيت أن تسدل عليه الحجاب ثانية لكنني تجاهلت كلامه. واصلت مطالعاتي دون كلل أو ملل، واصلت حتى وضعت سبابتي على طالعي ويا له من طالع عجيب.

حاول جدي أن يتلع ريقه ليواصل لكن فمه كان مثل جوف التنور فأسقيته ماء. شرب قليلا ثم واصل: رأيت في طالعي أن جرادة تظهر في آخر الزمان، جرادة عملاقة تطير في السماء كأنها طائر الرخّ أو كأنها العنقاء التي يذكرون. جرادة تبصر الناس جميعا فردا فردا ويراهم الناس جميعا حيثما كانوا، تغشى ديارنا قادمة من الشرق. تنظر في وجوه الناس، تتملى وجوههم، فمن نظرت فيه وتأملت فإنها تسمه بوسم لا يزول. تهلك الناس كما يهلك الجراد أخضر الزرع ويابس، لكن الجراد يأكل الزرع الذي أهلك أما هي فلا تأكل من تهلكه.

ستصل تلك الجرادة الملعونة إلى عقر دارنا، ستدخل قريننا، فإذا وصلت إلى قريننا فسوف تقع عينها أول ما تقع على الخمسة الكبار. سوف تسمني وتسمهم تلك الجرادة الملعونة يا ولدي، هكذا قال طالعي.

رمقني جدي بعين ضامرة وأضاف بنفس مقطوع: تأكل رفاق دربي الأربعة ثم تأكلني خامسهم. توقف جدي عن الكلام دقيقة أو دقيقتين، لمحت بعدها كأنما انقشع الدم من تحت جلدة وجهه وغار. أسبل عينيه ثم عاود فتحهما وسمعته يتمتم: الآن حصحص الحق، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، قالها بلسان مبين ثم دخل في غيبوبة.



عازف الصرناي

رن هاتفي الجوال في وقت غير معتاد، وقت قد آويت فيه إلى فراشي، والفراش عندي خط أحمر. كدت أن أتجاهل الرد لولا شعور خفي دفع بي لمغادرة السرير إلى حيث الهاتف. منذ أشهر وأنا أتركه بعيدا عني إذا نمت، حتى ولو غفوة قيلولة لا تزيد عن ساعة. فوجئت أن المتصل هو خالي، حبيبي، أقرب القريين إلى نفسي، وهو رجل قد عبر الستين عاما، ومن يعبر الستين فلن يتصل في وقت مثل هذا الوقت مالم يكن مضطرا للاتصال. خفت كثيرا وتسارعت دقات قلبي ثم رددت بتلعثم بيّن: هلا يا خال. جاءني صوته من الطرف المقابل محمولا على حنجرة واهنة ضعيفة ونفس منهك جدا وهو عازف الصرناي، عازف الصرناي الذي منحه الله رئة بعير، الصرناي آلة نفخ شعبية لا يقدر عليها إلا أولو الحويصلات التنفسية القادرة.

خرجت حروفه منهكة واهنة، قال لي: أصابني كورونا بشكل مؤكد، وقد استدعيت سيارة الإسعاف وسوف تأخذني إلى المستشفى. قلت له: سأتيك الآن فقال لي كلا، حالتي سيئة جدا ولن يسمحوا بوجودك معي، هاتفك الآن لتعرف أين أنا فقد لا نلتقي ثانية، أما



المستشفى فهذه مهمة رجال الإسعاف المهيأين لذلك. أشفت عليه من تعب الكلام فقلت له يسّر الله أمرك وشافاك، قلتها وفي داخلي حزن بحجم السماوات والأرض، وعندما أغلق الهاتف أخذتني عاصفة من بكاء مرير. لم تعد عندي رغبة في نوم أو حتى مجرد استلقاء على السرير، لذلك جلست على أريكة في صالون البيت، لم أغمض عينيّ لكني لا أرى بهما شيئاً، فقط أحرق في نقطة غير معلومة.

اجتاحني سلطان النوم وأنا على الأريكة، نمت في وضع غير صحي على الإطلاق، ولذلك انتبعت بعد ساعتين برقة متييسة واطراف يسري فيها الخدر. حلمت في تلك الساعتين بأن هناك من يحشرنى بقوة داخل صندوق ضيق ولذلك انتبعت، لعلها عناية الله قد أيقظتني كي أعدّل وضعية نومي. انتقلت إلى سريري غير أن النوم قد طار مني كما يطير طير أفزعه راجم عابر. قلت لنفسى: لا شيء غير السرير، وسوف أبقى عليه بنوم أو بغيره، المهم ألا تعوّج رقبتى فتغدو مثل رقبة بعير. لفتت انتباهي رسالة على شاشة هاتفي المحمول، التقطت الهاتف ثم تذكرت أن نظارتي بجوار الأريكة وأنا من غيرها كالأعمى أو أضل سبيلاً. تحركت نحو الأريكة ثانية ووضعت النظارة فوق أنفي على عجل وطالعت رسالة الهاتف المحمول.



كانت رسالة واتس أب من خالي، وما دام قد كتب رسالة فمعنى ذلك أنه بخير، أو بخير نسبيا على الأقل. يقول خالي: السلام عليكم، فجرك مشرق وسعيد، وصلت المستشفى، وألقوا بجسدي المتهالك فوق سرير أبيض. كنت في حالة موت إلا قليلا، ملتصق بالسرير لا أستطيع حتى تحريك اصبعي، خيل لي أن ثلة من الناس قد رجمتني بالحجارة حتى دُفنتُ تحتها، أرقب أنفاسي، أتابعها وهي تذوي شيئا فشيئا، يقترب بي إيقاعها البطيء من موت محتوم. لقد أعطيتهم رقم هاتفك ليهااتفوك إذا مت، ليس لي غيرك ويهمني كثيرا أن تعرف أنني مت لتترحم علي فقط. أما الغسيل والكفن والدفن فهذا شأنهم ولن يقبلوا منك أي مساعدة، هذه أمور محسومة لديهم تماما فلا تتعب نفسك ولا تحاول. حفظك الله.

قلت وقد قرأت الرسالة ثلاث مرات: كان الله معك يا خالي، كان الله في عونك. رذك الله لنا ولآلة الصرناي التي لم يعد يعزفها أحد غيرك، وقاتل الله كورونا الذي أصابك في مقتل. تقلبت على فراشي طويلا لكنني استسلمت في نهاية المطاف، نمت نوما عميقا وطويلا، أدركت ذلك من ساعة الحائط التي تناظرني من عل، وأدركته من الجوع الذي كان يفري أحشائي مثل مخز في يد خراز بليد. لذلك غادرت

الفراش حاملا جوعي باتجاه المطبخ. شرعت في تجهيز وجبة وقبل أن أقدح الزيت وصلت رسالة واتس أب، أغلقت كل شيء وتوقفت تماما عن الطبخ وأسرعت نحو الأريكة. كانت الرسالة من خالي، وما دامت هي من خالي فهو بخير إذن. جلست، لبست نظارتي، ثم فتحت الرسالة.

كتب خالي في رسالته: السلام عليكم ورحمة الله، أكتب لك وقد أدركت عدة معان لم أدركها جيدا من قبل، كانت تمر علي كمفردات استهلاكية لتزجية الوقت ولا غير. لقد أوصلوني بجهاز التنفس الصناعي فعرفت ما معنى أوكسجين، وتحركت رثي بجرية أفضل فعرفت معنى الرئة، وعندما أضجعتي الممرضون على جنبي للنظافة أدركت معنى التمريض، وعندما أوصلني الطبيب بالجهاز أدركت معنى الطبيب. أشعر بالحياة الآن، أشعر بها فعلا على نحو لم يكن متوفرا مساء أمس وصباح اليوم لكني لم أتفاءل بعد فأوصالي ماتزال مفككة. كن بخير. انتهيت من القراءة فأغلقت الجوال وعدت للطبخ، عدت وأنا أكثر تفاؤلا من خالي وإن كان هو الذي يعاني لا أنا، لكني أراه قد تحسن - ولو قليلا- عن ذي قبل.



كل المقاطع المصورة لحفلات خالي موجودة عندي، غير أن
أجملها على الإطلاق هي تلك التي لاتزال على أشرطة الفيديو تيب،
وهي أشرطة قديمة لأن أنظمة الفيديو قد سادت أعواما ثم بادت،
أصبحت الآن دقة قديمة كما نقولها بالمحكي في جهاتنا. لذلك عقدت
العزم على نقلها من على أشرطة الفيديو تيب البائدة إلى ملفات
حاسوبية حديثة، فتمكن من تشغيلها على الحواسيب أو على الهواتف
الذكية. هذا المشروع تأخر كثيرا، كنت سأقدمه لخالي هدية في عيد
ميلاده الثامن والخمسين، ثم عيد ميلاده التاسع والخمسين، وفي كل مرة
كان يحول بيني وبين إنجازه كسل في همتي. الآن هو طريح كورونا ولو
كتب الله له العمر فسوف أقدمه هدية له في عيد ميلاده الستين. بعد
شهرين من الآن سيحتفل به، وآمل أن يحتفل به فعلا.

مضت ليلتي هذه ولم استلم رسالة من خالي، لا رسائل ومع
ذلك سوف أنام فأنا مرهق، مرهق نفسيا على الأقل. سأنام وأحتفظ
بهاثفي المحمول على مقربة مني، لو وصلت رسالة من خالي فسوف
أنتبه لها. نمت عند العاشرة ليلا وصحوت عند العاشرة صباحا
وتساءلت: ما هذا الحظ الرديء؟ لو كنت بحاجة إلى مثل هذا النوم
الطويل لما تيسر لي، واليوم يحدث هذا وأنا بأمس الحاجة لمزيد من



الوقت؟ تذكرت رسائل خالي فألقيت نظرة فاحصة على هاتفي المحمول فلم أجد، كدّرني ذلك كثيرا، خشيت أن تكون حالته قد ساءت. تساءلت - في محاولة للتفاؤل - ولم لا يكون قد فعلها هو بدوره ونام نوما طويلا؟ صبرت نفسي بتلك الفكرة ثم جهزت لقمة أكلها فأنا خاوٍ تماما.

قمت بتجميع أشرطة الفيديو، تلك التي توثق حفلات خالي، بعضها في مكتبي وبعضها في مخزن للمواد السريعة التلف. جمعتها من هنا وهناك والقيت بها فوق طاولة كبيرة، تكومت الأشرطة فوقها فكانت مثل تل صغير. قمت بتنظيف رأس الفيديو فهو مهجور من سنوات، ولم نجد مواد التنظيف المخصصة له، مات الفيديو وماتت كل توابعه معه. جهزت التوصيلات المناسبة وبدأت عملية الرقمنة، بدأ التحويل من أشرطة الفيديو التماثلية إلى ملفات الحاسوب الرقمية. مضت الساعات وأنا مكب على الأشرطة مثل نسّاج هندي، تذكرت خالي فانتفضت. يا إلهي، لا رسائل من خالي أبدا، لقد أصابه مكروه ما، حتما قد أصابه مكروه ما إذ ليس من المعقول أن ينام هذه المدة كلها. تركت الرقمنة جانبا وشرعت أذرع الصالون جيئة وذهابا، ما الذي يجب علي أن أفعله؟ كيف اطمئن على خالي؟ بمن اتصل؟ من يفيدني عنه؟

بلغ القلق حدّه وقررت الذهاب للمستشفى، حملت هاتفي المحمول وفي لحظة نور لاحظت أمرا مضحكا. ضحكت وارتميت على الأريكة ذاتها رغم ما أنا عليه من القلق والتوتر. ضحكت حتى اغرورقت عيناى بالدمع، وسخرت من نفسي حيث لم يكن هاتفي موصولا بالشبكة، يا لسخرية الأقدار ويا لعمق تأثير القلق! فتحت الواي فاي وما هي إلا أقل من ثانية حتى انهمرت الرسائل مثل المطر، كان عداد الرسائل يتسارع وكأنه عداد محطة وقود. وجدت لخالي رسالتين، يفصل بينهما ثلاث ساعات. قال في الرسالة الأقدم: نم هائنا هادئا ولا تهمل طعامك فأنا بخير، أتنفس بارتياح مادام جهاز التنفس موصولا وهذا في حد ذاته كرم من الله. ما تزال حاستي الشم والتذوق مفقودتان عندي، ولكنها ستعود تدريجيا كما أخبرني الطبيب.

أما الرسالة الأحدث فقد كانت مؤلمة جدا، إنه يشتكي فيها من الوحدة القاتلة. ثلاثة أيام أمضاها على سرير مفرد يحيط به البرد والصمت، حتى الأطباء الذين يتناوبون خدمته لا يتكلمون معه إلا قليلا. هو يدرك صعوبة الموقف، ويدرك معنى الحجر، لكنها تظل أشياء مزعجة جدا رغم الحاجة الضرورية إليها. لهذا فقد توسعت في ردودي على رسائله، كنت أكتب له ردودا مقتضبة مراعاة لحاله أما الآن فلا

مناص من التوسع والإسهاب والتفصيل. كتبت له عن مشروع الرقمنة، وصفت له خطوات العمل، من تجميع الأفلام حتى تحويلها إلى ملفات رقمية. وحتى أحرك عنده نوازح الأمل قلت له: سأجهز فيلما عن إبداعاتك مع آلة الصرناي، وعندما نحتفل بعيد ميلادك الستين سيكون الفيلم عمود ذلك الاحتفال.

مضى يوم دون رسائل، أربع وعشرون ساعة دون رسائل من خالي. تفقدت جهازي فوجدته على خير ما يرام، مشحون بالكهرباء موصول بالشبكة. ومع بداية التوتر والشعور بالقلق وصلتني منه رسالة، وصلت فكانت كأنها الماء على الظمأ. قرأتها فانزعجت أولا، ثم أتممت القراءة فسررت مما جاء في بقيتها. انزعجت لأنه يقول هذه آخر رسائلي لك، يقول أنهم قد طلبوا منه إيداع هاتفه في أمانات المستشفى فهو ممنوع على المرضى. لكنني فرحت لأنه بشر باقتراب مغادرته للمستشفى، وسيقضي عدة أيام في حجر منزلي. كتبت له ردا أرحب به في بيتي، وتمنيت عليه أن يقبل بذلك، وأن يطلب أن يكون الحجر في غرفة من غرف منزلي الذي لا يسكنه سواي.

في ساعات الصباح الأولى رن هاتفي فأسرعت للرد، جاءني من الطرف الآخر من يقول معك طبيب المستشفى. ما إن سمعت كلمة



المستشفى حتى تراخت قوائمي، قلت بأسى: خالي مات؟ سمعت قهقهة الدكتور تجلل في هاتفني المحمول، قال لي: وَّحَدَ اللهُ يا رجل، خالك بخير وعافية. تواضعت كقطرة ماء أفلتت من غصن أخضر وجلستُ على الأريكة، قلت: لا إله إلا الله ثم اعتذرت من الطبيب لسوء فهمي. قال لي: اتصلت بك لأمرين: الأول منها أن تأذن لفريق المستشفى بزيارتك وترتيب غرفة الحجر المنزلي لخالك فقد أبدى رغبته أن يكون الحجر في دارك، والثاني أن تأتي لنا بآلة الصرناي. أدهشني طلب الصرناي فكررت للتحقق: الصرناي؟ قال نعم.

في دقائق معدودة تحولت دهشتي إلى ذهول، أذهلني هذا الطبيب الفذ بقدرته والفريق الذي معه على اكتشاف مجاهل خالي. قال لي خالك قوي بحبه للحياة، لقد هزم كورونا وكان هو الأقوى. كان قويا حتى في أشد لحظاته ضعفا، مبتسما حتى في أشد اللحظات عبوسا. واصل الطبيب حديثه فقال: عندما رأينا في خالك مريضا مختلفا - يختلف عن كل مرضانا - بحثنا في كوامنه فأدركنا أنه عازف فنان، فنان متعلق بآلته الفريدة الصرناي. استمعت إلى كلام الطبيب وعجبت لهذه الروح العظيمة التي يتحلى بها، أضفت على كلامه أن آلة الصرناي تحتاج إلى رئة قوية ومن مفارقات القدر أن تكون إصابة خالي في رئتيه.

فاتحني الطبيب برغبته في الاحتفاء بعازف الصرناي، خالي
الموقر. قال لي: لا بد من ليلة مشهودة ننتصر فيها على كورونا بقيادة
عازف الصرناي الأنيق. اقترح أن يعزف خالي على الصرناي وقد تعافى
صدره الآن، وأن تشاركه فرقة الفنون، كل فرد في بيته. اقترح أيضا أن
يتم الربط بينهم جميعا بالهواتف النقالة، العازف في غرفته بالمستشفى
والراقصون المغنون كل واحد في بيته. ثم قال بحماس عجيب: نريدها
حفلة صرناي على البعد!

في الحفلة السايبرانية المشهودة عزف خالي، عزف خالي على
الصرناي كما لم يعزف من قبل، بدا لنا وكأنه في أوج عافيته. عزف
خالي ورقص الراقصون وغنى المغنون، كانوا صوتا واحدا يقول للناس:
الجائحة ليست أقوى، وكورونا حتى وإن اعتدى على الرئتين فإنه لن
يمنع عازف الصرناي ولن يمنعنا.

أمثلة الرياح والسفن

عندما دخلت زنزانته -أثناء عملي المعتاد في زيارة عنابر السجن- لمحت في عينيه قلقا غريبا، استغربته لأنه من المحكوم عليهم بالإعدام وقد ماتت عنده دواعي القلق منذ ارتكب آخر جرائمه. لذلك قلت: لمحت في عينيه قلقا غريبا، فما الذي أنبت في دواخله القلق وهو يعرف مصيره منذ زمن ويؤمن به، بل قد تعايش معه تماما فهو يضحك ويمزح ويغني ويرقص ولم يعرف عنه أحد حالة قلق واحدة قد ارتسمت على ملامحه. لهذه الغرابة اقتربت منه وسألته كيف حالك؟ أجبني: بخير، ولم يضيف شيئا. عندما هممت بالمغادرة سمعته ينادي من خلفي: يا دكتور! وفي الحقيقة فما أنا بدكتور أبدا لكنهم جميعا ينادونني هكذا، كل النزلاء يقولون يا دكتور وأنا لم أحاول تصحيح الأمر. يهمني أن يكونوا سعداء، ولعل كلمة دكتور تكون مصدرا لسعادتهم.

لقد أمضيت عمري على هذا العمل في هذا المكتب، تجاوز عمري فوقه أربعين عاما. حتى بعد أن أحالي النظام بقوته إلى التقاعد طلبت التمديد فقبلوا ومددوا، هي حياة أمضيتها وأمضيها بين فئة من خلق الله، حياة ألفتها تماما، باتت قدرا وسمة لن يفصلني عنها إلا الموت.

نزلاء هذا السجن جميعهم قد عبروا على رصيف قلبي، فيهم مجرمون عتاة، وفيهم متورطون لم يتأصل الإجرام في نفوسهم، وفيهم أيضا أبرياء جاءت بهم حظوظهم السيئة إلى هذا المكان، وفيهم مشتبهون لا تدري إن كانوا إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء. وهذا المكان نظيف جدا، مرتب جدا، مرافقه كثيرة ونظيفة لكنه يظل سجنا. سجن لا يحبه أحد، فإذا جاءت الأقدار بأحدهم ظل يحسب الساعات ويحصي الدقائق التي تفصل بينه وبين الخروج منه.

عملي هنا هو عمل إنساني صِرْف يتعلق بنزلاء السجن، فأنا أخصائي اجتماعي في سجن المدينة، السجن الذي يسمونه السجن الكبير. ودوري يقوم على متابعة أحوال السجناء، متابعة مشكلاتهم العامة والخاصة، مشكلاتهم الناجمة عن سجنهم، أو تلك التي تطرأ بسبب التعامل مع سجناء آخرين أو ضباط أو جنود أو مع أي عامل من عمال السجن. وربما امتد عملي إلى خارج السجن، إلى أسر هؤلاء المساجين وما يتصل بأوضاعهم الناجمة عن سجن فرد منهم هو عضو في مجتمعهم الصغير. عندما يودع إنسانا السجن تصبح أسرته في مهب المشكلات - وهذه ليست قاعدة، ولكنها غالبية- وربما احتاج الأمر



إلى التدخل حتى من جانب إدارة السجن وربما من جهات أعلى من ذلك.

استدرت نحو هذا السجن وفي رأسي فكرة ما، ظننته سيتحدث عن إعدامه القريب لكنه لم يفعل ذلك، بل قال لي والغم بادٍ على وجهه: حرارتي مرتفعة يا دكتور، وحلقي يؤلمني كثيرا، قلت له: سأرسل لك الطبيب الآن إذن. وقبل أن أصرف وجهي عن وجهه قال: لقد فقدت حاسة الشم وحاسة التذوق وهذه أعراض كورونا كما فهمت. توقفت فجأة، ولعل عيني قد جحظتا دون أن أدري، قلت له: وحّد الله يا بني. ثم أضفت: هذه الأعراض هي أعراض الأنفلونزا أيضا فلا تقلق، وعندما لا حظت عدم اقتناعه بما قلت، أخبرته أن الطبيب سيأتيه وعلى عجل، وهو وحده من يستطيع التشخيص وهو وحده من يملك صلاحية نقلك إلى أقرب مستشفى. هزّ رأسه متفهما ثم أضاف: أخشى على السجن وعلى بقية النزلاء!

بلّغت طبيب السجن بشكوى ذلك النزيل ثم عدت إلى مكثبي، وطيلة بقائي فيه لم يشغلني أمر أقرب إلى فلسفات الفلاسفة مثل أمر هذا النزيل. قاتل سفّاح صدر الحكم بإعدامه المبني على جرائم قتل ارتكبها وأقر بها، وسوف ينفذ الحكم خلال أسابيع قريبة قادمة، ومع



ذلك فهو قلق جدا بسبب كورونا. أي أيام بقيت للمسكين كي يتشبث بها، وما الفارق بين موت كورونا والموت بسيف السيّاف؟ وحتى عندما أبدى خوفه على بقية النزلاء؛ أين غاب عنه هذا الشعور الإنساني الدافق عندما قتل خمسة، قتلهم على مدى سنوات بطريقة واحدة وبدم بارد. كيف اجتاحه القلق بمجرد أن رأى أعراض كورونا؟ وكيف كبت قلق الإعدام المؤكد بعد أيام؟ أليس الموت هو نفسه في الحالين؟

ما خرجت من هواجسي هذه إلا على وقع أقدام وجلبة، أسرعت نحو النافذة، نظرت من خلالها فرأيت عدة حافلات تتراصف أمام بوابة السجن الكبير، ورأيت فريقا طبيا يدلف من فم البوابة، ومن ورائهم فريق تعقيم يحمل كل واحد فيه أدوات الرش والتعقيم على ظهره. سارعت لملاقاتهم عند البوابة من الداخل، وجدت معظم المعنيين بالسجن قد سبقوني إلى هناك. نقلوا في تلك الحافلات من كانت لديه أعراض كورونا بعضها أو كلها، بينما أعادوا البقية بعد تعقيم المكان ووضع نظام احترازي دقيق وفريق مراقبة متخصص واعتبروا السجن الكبير في حالة طوارئ صحية عامة. بالنسبة لي وللمجموعة من العاملين



فقد صرفونا على أن نضع أنفسنا تحت حجر منزلي نتحمل مسؤوليته،
وكتبوا علينا تعهدا بذلك.

أمضينا أيام الحجر كاملة، أكثر من عشرة أيام كنت في غياهب
غرفة على سطح دارنا. كانت زوجتي تضع الطعام أمام الباب ثم تتصل
بي هاتفيا تنبهني لذلك، أزدرد طعامي ثم أضع الأواني في برميل به ماء
مخلوط بمواد مطهرة. لم تظهر عليّ أية عارضة من عوارض كورونا،
بالعكس من ذلك تماما خرجت متنعما مدجنا مثل خروف أضحية في
ليلة عيد النحر. لقد عرفت خلال فترة الحجر هذه قيمة الانطلاق
والحرية، وتذكرت نزلاء السجن وماهم فيه من ضيق، ودعيت الله أن
يحفظ لي ولمن معي نعمة العقل والبصيرة وحسن الإدراك وسعة الصدر.
إن غياب واحدة من هذه النعم الأربع قد يحمل الواحد منا إلى السجن
فيضيع عمره بين جدران صامته كثيبة.

سألت أول ما سألت عند عودتي لمكتبي عن النزلاء الذين
أخذوهم للمستشفى، ماهي أخبارهم وما نتائج فحوصهم؟ ولقد
صدمني حقا أن اثنين منهم قد تمكن منهم كورونا. ثبتت إصابة السجين
نفسه ذاك المحكوم بالإعدام ، وسجين آخر يقضي محكوميته وسوف
يفرج عنه قريبا. اقترحت على إدارة السجن أن نقوم بزياراتهما، غير أن

الضابط المناوب كان يستمع إلي باهتمام ويبتسم، ابتسم طويلا ثم بين لي أن مصاب كورونا ليس في حال زيارة أو زائر. كنت أعرف أن الدخول على مريض كورونا غير متاح إلا للأطباء والممرضين المعنيين به على وجه الخصوص، وحتى أولئك الأطباء والممرضين لا يدخلون عليه إلا بسلطان. سلطان من ملابس وأردية مخصوصة، ومعقمات وسوائل تنظيف واحترازات مما نعلم وما لا نعلم، كنت أعلم ذلك كله لكن اندفاعي العاطفي تجاوز ما كنت أعرف.

جاءت الأخبار أن حالة المريضين تزداد سوءا، ولا أدري كيف دار الحديث غريبا حولهما. قال البعض -عن السجين المحكوم بالإعدام- أن علاجه ضرب من الغباء. هكذا بهذه القسوة يقول ضرب من الغباء. ويبرر رأيه المادي الصرف بأن علاج كورونا متعب جدا وكلفته مرتفعة جدا والمريض سيموت حتى ولو تعافت حالته، أليس محكوما بالإعدام؟ ورأى البعض ضرورة التحقيق مع هذا المريض، كيف أصابته كورونا وهو في زنزانه منفردا؟ هل نقلها له عدو دون أن ندري؟ أم جلبها لنفسه ليموت خارج ساحة الإعدام؟ في لحظة أخرى من لحظات الجدل حول هذا السجين طالب أحدهم بالتخلي عن علاجه

فورا وتركه يموت، ثم تساءل ما جدوى أن تعالجه فيشفى ثم تضرب عنقه
بعد أن يتعافى؟

عندما جاءني الدور في الكلام قلت: كن إنسانا في جميع
حالاتك، تحت كل الظروف، وفي ظل كل الافتراضات. ولكي أوضح
وجهة نظري أضفت: هذا السجين محكوم عليه بالإعدام لجرائم قتل
ارتكبها واعترف بارتكابها، الإعدام هو جزاؤه تحت كل الشرائع وكل
القوانين فجرائمه كانت بشعة جدا، لا يمكن التراخي فيها ولا درؤها
بالشبهات. أما كورونا فهو فيروس غاشم تمكن منه، ولو لم نتداعى
لعلاجه لكنا نحن أيضا قتلة. من يرضى بموت إنسان ولا يسعى لنجدته
فهو قاتل، إلا أن يعجز أو يجهل أو يحاول فيفشل. الموت واحد في كل
الحالات، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره كما يقول الشاعر، لكن
العبرة بموقفنا من الموت. ردة فعلنا باعتبارنا بشر أمام كائن يموت بين
أيدينا، من حقه علينا أن ننقذه ما استطعنا لذلك سبيلا. وهذا السجين
المحكوم بالإعدام من حقه علينا أن ننقذه من موت كورونا، ومن حق
ضحاياه علينا أن نتقبل إعدامه ليأخذ العدل مجراه.

جاءنا خبر موت السجين الذي يقضي محكوميته في السجن،
السجين الذي كان سيطلق سراحه بعد أيام مات بسبب كورونا.

خيّمت علينا سحابة حزن سوداء كثيفة، وكنا نبكي جنباً إلى جنب مع المساجين. يا لتعاسة هذه الدنيا، نبكي على بعضنا ونسحل بعضنا، ما هذا التناقض؟ في استطاعتي تبرير ذلك للناس، في مقدوري أن أفك التناقض بين الأمرين، ولكن للناس فقط، أما في داخلي فلا. لقد سرى عني وعن الزملاء وعن المساجين أن إدارة السجن قد التزمت برعاية عائلته من بعده، هذا جميل جداً، ولكن: الأكثر جمالاً أن نكتشف دواء للشر، يستأصله من النفوس فلا نسجن أحداً بعدها، ودواء للمرض، يستأصله من الأجساد فلا يموت أحد. وإلى أن تحدث تلك المعجزة سنظل نبكي على بعضنا بعين ونضحك "على" بعضنا بالعين الثانية.

بات تركيزنا الآن على السجين الثاني، السجين المحكوم بالإعدام، هل سينجو من كورونا ليسلك طريقه بسلام إلى ساحة القصاص؟ أم أن كورونا سيدركه فيسبق السيّاف إلى روحه فيفوز برأسه؟ تحول تركيزنا هذا إلى سؤال دائم عنه، وفي كل مرة كان هناك من يطمئننا. نعم يطمئننا، رغم أننا سنقتاده بعد أن نطمئن عليه إلى ساحة القصاص! كانت أخباره السارة تتوالى علينا، من حسن إلى أحسن. قالوا أن تحسنا سريعاً يطرأ على حالته، وهذه من النوادر فالشفاء من

كورونا لا يتخذ هذه الوتيرة أبدا. الشفاء من كورونا بطيء جدا، ولكن هذا المريض محظوظ جدا. وفي كل مرة يتحدثون فيها عن حظ هذا الإنسان تأخذني نوبة أسي، ليته لم يقتل أحدا ليكون محظوظا بالفعل.

هاتفني طبيب سجيننا المريض هذا الصباح، هاتفني على غير معرفة سابقة بيننا، لكنه بين لي أن اتصاله قد جاء بناء على طلب المريض نفسه. أذنوا له بالاتصال فطلب أن يتصل بي، وهاتفني بالفعل.

كان صوته ضعيفا واهنا قد أوهنته حمى كورونا، لكنه كان في حالة لا تصدق من الفرح والسرور. كاد أن يخرج من قلب هاتفني الخليوي فرحا، وكانت عباراته كلها تشي بالسعادة الغامرة، وكان يغني كلما وجد فرصة للغناء. سمعت منه نكتة أضحككتني كثيرا فرد علي بأغنية: يبو ضحكه جنان، ترا رارا را ، مليانه حنان، ترا رارا را. ضحكاته وأغنياته كانت تسرني وتطعني في الخاصرة أيضا، لم أكن بقادر على تبرير سعادته لكنه كان سعيدا سعادة حقيقية.

احتفظت برقم هاتف الطبيب، قلت أعود إليه كلما احتجت للسؤال عن سجيننا المريض. وبالفعل مضى نصف النهار دون أن تصلنا أخباره، وانتهى دوامي أيضا ولم أحط به علما. هاتفت الطبيب، فجاء الرد بأن الهاتف المطلوب مغلق الآن. ليس غريبا أن تجد هاتف الطبيب



مغلّقا، مشاغلهم كثيرة وطوارئهم لا تنتهي وليس لهم من أوقاتهم من شيء.

تركّت التفكير نهائيا في صديقي المريض، أجّلت ذلك حتى الصباح ثم نمت. نمت نوما عميقا، وعندما استيقظت واتخذت زيني وطعامي سلكت طريقي إلى العمل. في الطريق رنّ هاتفي، نظرت إلى شاشته فإذا هو رقم سجيننا المريض. تهللت أساريري وقلت ها قد غادر المستشفى. منذ دخل الى المستشفى لم يهاتفني من جهازه الشخصي فقد أرسله إلى بيته بطلب الطبيب. فتحت الهاتف وقلت له بصوت مرتفع: ألف ألف مبروك يا عسل، تأخر في الرد قليلا ثم جاءني صوت أنثوي حزين. جاءني صوت ابنته من الطرف الآخر تقول: مات أبي يا دكتور.

منازلات الإمبراطور الأعمى

١- واقعة الرصيف

ما انزعجت من إبني مثلما انزعجت اليوم. هو رفيق دربي أكثر من كونه ولدي، والانزعاج منه أمر مستغرب جدا، لا يصدقه أحد. أنجبناه أنا وزوجتي في مطلع حياتنا الزوجية، حينها كنت أنا وهي في ميعة صباننا. لذلك فإن من يراه معي يظنه أخي. واليوم أزعجني كثيرا، أزعجني وكدت أن أخرج عن طوري فأوجه له لكمة على أنفه المستقيم. لماذا؟ لأنه جعل مني فرجة للغادي والرائح، فرّج عليّ الناس. سخروا مني، وبأذني هاتين سمعت ضحكاتهم تجلجل من خلف النوافذ والأبواب.

هو متدين جدا ولهذا أحبه كثيرا، والناس من حولنا يحبونه كثيرا للسبب نفسه. لكنه مندفع، مندفع جدا وعندما يعزف له أحدهم على وتر الدين فإنه يثق فيه، يثق ثقة عمياء صماء بكماء قد تضعه في مواقف لا يحسد عليها كما في حادثة البزاز. البزاز بيّاع قماش من جيراننا، أطلق العنان لذقه حتى تجاوزت ثدييه، وتحلّى بزبيبة كأنما هي

ختم من عنبر أسود، وداوم على دروس المسجد كتفا بكتف إلى جوار ولدي. وعندما اعتادا على صداقة بعضهما، وملاً خدر المحبة رأسيهما، استدان من البنك مبلغا والضامن كان ولدي. استدان وقبض المال ثم غاب غيبة لم يعد منها، وترك إبنى يسدد متورطا في مبلغ لا ناقة له فيه ولا جمل، كل ما في الأمر أنه هو الضامن لدى البنك.

وعندما اشتد أوار كورونا، وتساقط ضحاياه ذات اليمين وذات الشمال، كان الإغلاق. أعلنت السلطات الصحية يومها إغلاقا شاملا، امتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. الأسواق والمحلات ودور السينما ومكاتب الخدمات والملاهي، حتى دور العبادة وصل إليها الإغلاق فالكارثة مهولة جدا، كارثة عمياء لن ترحم عابدا ولا مسنًا ولا طفلا صغيرا. مع ذلك، كان ابني يبحث عن مسجد. تصوروا في ظل ذلك الإغلاق ومنع التجول يخرج للبحث عن مسجد. قلت له هذا إغلاق شامل، وتدابير احترازية، كورونا يا ولدي هل تعرف ما معنى كورونا؟ لم يكف عن البحث حتى فرضوا عليه غرامة مخالفة منع التجول. وها هو الليلة يواصل عروضه الاندفاعية ويأخذني للصلاة على الرصيف فيضعني ويضع نفسه في موقف لا نحسد عليه.



في رمضان المنصرم أقاموا مسجدا في بهو العمارة، ابني وجار لنا مثل ابني، مثله في الاندفاع طبعاً. واشتكى السكان الحال على مالك العمارة، قالوا له هؤلاء يضايقون الخارج والداخل، فزجرهم المالك. زجرهم لكنهم توسطوا عنده بالحارس - حارس العمارة فهو عينه البصيرة في العمارة - فقبل وساطة الحارس وأذن لهم بالصلاة جماعة فوق سطح العمارة. واشتكى السكان ثانية، فهذا تجمع غير مناسب تحت وطأة كورونا، وإذا كانت المساجد مغلقة رحمة بالمصلين فلماذا نقلوا المسجد إلى سطح العمارة؟ هذا اندفاع، ولدي متدين مندفع، وما صلاتنا اليوم على الرصيف وما انتهت إليه من مأساة إلا وجه من وجوه ذاك الاندفاع.

عندما كنا نعبّر الطريق إلى البيت، والوقت وقت صلاة، والإغلاق على وشك البدء، شاهدنا رجلاً يصلي على الرصيف. قال فلنكسب الجماعة معه يا أبي فأخرجني، إن قلت له لا فهذه صلاة وأنا على حافة القبر، وإن قلت حسناً فنحن في آخر دقائق السماح بالتجول، والصلاة في ظل كورونا تكون أكثر أماناً في البيت. لم يخيرني أبداً، بل أوقف السيارة بجوار الرصيف ونزل مسرعاً فنزلت. صلينا خلف الرجل، وبينما سلم واستدار نحونا كما يفعل الأئمة، نهضنا نحن لنتم

الركعة الفائتة. وعندما جلسنا للتشهد الأخير عطس إمامنا عطسة نشرت فوق رؤوسنا سديما كبيرا من الرذاذ. نهضت - لهول المفاجأة- قبل أن أسلم، نهضت بسرعة وشرعت أجري نحو البيت، أهرول ويديا كأنهما جناحا طائرة تهوي في الماء.

٢- واقعة المؤتمر السايبراني

اجتمعوا من كل مدينة في أمسية شعرية، بعض المدن تنأى عن الأخرى بما يزيد عن ألف من الكيلات، ومع ذلك جمعهم العالم الافتراضي في مساحة واحدة. هذا من الشرق وهؤلاء من الغرب وأولئك من الجنوب ومن الوسط ومن الشمال، يوحد بينهم الشعر ويجمعهم الفضاء السايبراني. ومنذ حل كوفيد-١٩ ضيفا على عصرنا حل معه التواصل عن بعد، المؤتمرات والندوات واللقاءات وحتى الامتحانات المدرسية والمقابلات الشخصية تتم عن بعد. وهذه أمسية شعرية ينطبق عليها نفس الناموس، ناموس كوفيد-١٩ .

تقدم مقدم الأمسية وخطيبها المفوه، قال كلاما تهتز له هواتفنا الخلوية. عبارات بعضها من قلب القاموس وبعضها من شارع يعجّ بالدهماء. امتدح الأمسية ومنظمو الأمسية، وأشاد بالشعر والشعراء.

نَبّه إلى بعض الأخطاء التي يقع فيها من يقرأ الشعر، ثم اختار بيتين لكل شاعر من شعراء هذه الأمسية ثم قدم الشاعر الأول. ألقى الشاعر الأول قصيدتين، واحدة عن الجائحة توعّد فيها كورونا ولمح من طرف خفي إلى الصين مشككا في صدق روايتها عن كورونا. أما القصيدة الثانية فقد كانت عن معاناته الشخصية وكان عنوانها: شجر الأحران. تفاعل الناس مع البيت الذي اقتبس فيه شطر الإشبيلي: وبكى بعضي على بعضي معي. لم يدوي التصفيق عند انتهاء الشاعر على غير العادة، وكيف نصفك وكل واحد منا ممسك بهاتفه الخلوي في يده؟

انتقل المقدم الفصيح بعد ذلك إلى الشاعر الثاني، قدمه للناس ثم شرع يلقي قصائده. ألقى قصيدتين ويبدو أن هذا قانون الأمسية، ألقى قصيدة عن الجائحة غلب عليها التندر والفكاهة فقد كان خطابها موجها للخفّاش. وأخرى عن معاناته الشخصية وكان عنوانه: بكاء على أطلال قلب.

التزم الشاعر الثالث بالقانون نفسه، قصيدتان، واحدة عن الجائحة والثانية عن معاناته الشخصية. كانت القصيدة الثانية طويلة نسبيا، ملّ منها الحاضرون لكن المقدم الفصيح قد وصفها بمعلقة العصر. جاء مطلع القصيدة: "حوار عتيق على باب بُصْرى"، وكنت

أسمع المقدم الفصيح يقول الله الله بعد كل بيتين أو ثلاثة. جاء بعد ذلك دور الشاعر الرابع الذي التزم أيضا بقانون الأمسية، فقال قصيدتين: الأولى عن الجائحة والثانية عن معاناته الشخصية. جاءت قصيدته الثانية مليئة بالعبارات العارية التي أخرجتني أمام زوجتي القريبة مني، خفضت الصوت، بل كتمت أنفاسه وتمنيت لو كان أمامي فأسفعه بمنفضة السجائر التي أمامي.

تتابعت الأمسية على الوتيرة نفسها، قصيدتان لكل شاعر الأولى منهما عن الجائحة والثانية عن معاناة الشاعر. مضى حتى الآن عشر قصائد عن الجائحة وعشر عن سواها، أتابع باهتمام وكلما تعبت يد نقلت الهاتف الخليوي للأخرى، بينما تتناوب المشاهد على شاشة هاتفي بترتيب مدهش. عندما بدأ الشاعر السابع أحسست بحرارة الجو عندي في الغرفة، أشرت لزوجتي بطرف يدي أن تشعل مكيف الغرفة المقابلة وأن تترك بابها مفتوحا. أريد هواء باردا من غير صوت مزعج، الصوت المزعج ربما كدر أجواء الأمسية كلها، وهذه الهواتف النقالة تكبر ضجيج زيادة على ما هو عليه.

هبّ الهواء البارد وذدع كما يقول أسلافي البدو، مر لطيفا على وجهي وجبيني ورأسي، أحسست - تحت هذه الهبة - ببعض برد

يسري في أطرافي. انتفضت انتفاضة خاطفة، وجدت عطسة حيرى
تباري سقف حلقي. العطسة تبحث عن مخرج، تدغدغ تجاوبف أنفي،
هي تريد الانطلاق وأنا أكتم أنفاسها. لم أعد أدري بما يدور في الأمسية،
شغلني عنها العطسة. وفي لحظة غير محسوبة انطلقت العطسة من
مكامنها. خرج السديم وكأنه شجرة عملاقة تُحْتَثُّ من حلقي ومن
فمي. انقطع بعد ذلك البث عني وحتى هذه اللحظة لا أدري كيف
انقطع.

٣- واقعة البهو الفسيح

جاري في سُكْنَى العمارة - الجار المواجه لي تماما- طرق باب
شقتي عند الظهر، رأيتُه أولا من عين الباب - العين السحرية - فكان
يتراءى لي مثل عفريت، بصلعته العجيبة وتلك الكمامة الغريبة التي
يرتديها. كان يقف بعيدا عن الباب يداه مجتمعتان خلف ظهره، ولما
فتحت ابتعد خطوة أخرى إلى الخلف. رحبت به لكنه أصر على عدم
الدخول، قال أن الظروف لا تسمح، لكننا سنجلس سويا ذات يوم
ونشرب القهوة والشاي، ولكن بعد زوال كورونا.

حرر يديه من وراء ظهره فجأة ثم انحنى نحوي قليلا، تحدث من تحت جفنين غليظين حذرين وكأنه يفشي سرا خطيرا. قال لي: حاول ألا تخرج من الشقة إلى أن يتم تطهير مدخل العمارة، تلقت يمينا ويسارا ثم أضاف: شخص مصاب بكوفيد-١٩ عطس اليوم على مدخل العمارة. قلت: من جيراننا؟ قال: كلا، رجل غريب. قلت مندهشا: يا ساتر، غريب ومصاب وعطس؟ وبهذه الجرأة؟ وهل بلغت السلطات الصحية؟ قال: نعم. هاتفت المسؤول عن الوقاية، وصفت له ما حدث، طلب مني تحديد الموقع، وعندما فعلت وعدني خيرا.

عدت إلى مكاني أمام التلفزيون ومرأى جاري ما يزال في مخيلتي، استغربت منه هذا الكلام وتساءلت: رجل غريب ومصاب؟ من أين جاء؟ وكيف عرفوا أنه مصاب بفيروس كورونا؟ في هذا الأثناء سمعت جرس الباب، نظرت من عدسته فإذا هو حارس العمارة. قال لي وكأنه حامل مفاتيح العافية: لا تقترب من بهو العمارة إلى أن نقوم بتطهيرها. سألت - وكأنني لا أدري - ولماذا؟ فأعاد لي قصة الذي عطس، أعادها بصوت خفيض جدا ثم تركني وغاب.

ما أن استقر بي المقام في صالون البيت حتى رنّ هاتفي، أخرجته من جيبي ونظرت فإذا هو جاري. الجار الذي يسكن فوقنا تماما، الجار

الذي تشاكرت معه حول موقف السيارة في أول سكنانا هنا، الجار
الظريف الذي يسألني في كل اتصال: عرفتني؟ فتحت له الهاتف وقلت
له مرحبا، قال: مرحبتين، هل عرفتني؟ قلت نعم، جاري الذي شقته
فوق شقتنا. أكمل كلامي هو بقوله: جارك الذي تشاكر معك حول
موقف السيارة، ثم ضحك وضحكت.

ابتداً كلامه من آخر شهقة في ضحكته المجلجلة، قال لي اسمع
يا جار هنا، محبة لك أرجوك لا تعبر بهو العمارة حتى يتم تطهيرها.
تظاهرت بعدم معرفتي لما حدث وسألت: ولماذا يا جار؟ قال بصوت
خفيض نسبيا: اليوم عبر منها مريض وعطس فيها. قلت - زيادة في
التظاهر- وإذا عطس؟ كلنا عطاسون يا صديقي! قال لا، هذا مريض
بوباً كورونا. سألت: وهل جرى إبلاغ السلطات الصحية عن هذه
الواقعة؟ قال نعم، وسيتم تطهير العمارة بكاملها.

جاءني بعد هذا الاتصال عدة اتصالات أخرى، وكلها تتحدث
عن رجل غريب مصاب بمرض كورونا قد عطس في مدخل عمارتنا.
كل تلك الاتصالات شيء وذلك الاتصال الذي فاجأني شيء آخر،
فاجأني لأنه من صديق لي في حي مجاور، وفاجأني أن أخبار عمارتنا
قد وصلت إلى كل مكان. تداول الناس قصة المريض الذي عطس في

مدخل العمارة، زادوا عليها وغيروا وبدلوا ما طاب لهم التغيير والتبديل.
تمر القصة بجواري صباحا وتعود في المساء مختلفة كثيرا.

بعضهم اختلق فيلما تراجيديا من هذه الحادثة، قال أن مسنا
أصابه فيروس كورونا، وبعد إصابته تخلص منه ذووه فأمسى ليلته في
البهو، وملاً الدنيا عطاساً. وبعضهم قال أن أجيرا كان له ثأر عند أحد
سكان العمارة، وقد أصابته العدوى فتذكر خصمه فجاء وعطس على
باب العمارة لينقل له العدوى. أوهام وخرافات وشائعات لا تليق ببني
الإنسان إذا رغبوا أن يكونوا أهلاً لإنسانيتهم.

لقد تم تطهير العمارة بالكامل، لكن عقولنا بقيت ملوثة
بالكامل، بقيت آسنة متعفنة. ليتها حظيت بما حظيت به العمارة من
التطهير، ليت الفريق الصحي الذي حضر قد صب بعض مطهراته على
عقولنا لكان ذلك أجدى وأنفع. تحت هذه الحالة المائلة قررت أن
أدعب عقولهم قليلا، جمعتهم في بهو العمارة كلهم، وعندما اجتمعوا
وقفت على أسفل عتبة في السلم. وقفت وألقيت كلمه، أوصيتهم فيها
بالدعاء لي والعفو عني. ثم قلت متظاهرا بالألم: لعنة الله على كورونا
وعلى الساعة التي أصابني فيها كورونا. لاحظت تمللمهم وبدأ بعضهم
يهرب بعيدا، عطست عطسة كبيرة فتدافعوا هاربين نحو الشارع.

٤- واقعة الوجه الوقور

اليوم جاءنا ضيفنا الظريف، الزائر الوفي الذي يزورنا في كل عام. وصل قادما من الريف، ريفنا الجميل الذي تعود إليه منابت أسرتنا، ريف وإن كانت قد اجتاحتها المدنية فغيرت كثيرا من طبائعه، لكنه يظل محتفظا بسحر خاص، سحر تشكله محاصيل مميزة، وتعطره نباتات ذات روائح عطرية عبقة.

ضيفنا الظريف الذي يزورنا مرة كل عام، لم يغير عاداته الطيبة هذه منذ مات أبي. كان صديقا لأبي محبا له، وبعد أن مات أبي التزم بزيارتنا مرة كل عام وفاء لابي. وللحق، فإن هذا الضيف نبيل كريم، ما زارنا يوما إلا وهو محمل بالهدايا والحلويات والمنتجات الزراعية الموسمية التي يتهداها الناس عادة. وإلى ذلك فهو حريص على ألا تكلفنا زيارته شيئا، مصرا على أدنى مستويات الحفاوة به.

يصبح لبيتنا رائحة ريفية عبقة، ذلك أنه يأتينا ومعه محاصيل من الريف، ونباتات عطرية من الريف. ومن المفارقة أن أبنائي إذا مر بهم رائحة كتلك الرائحة قالوا: رائحة جدو الطيب. وسوف يأخذكم

العجب إذا علمتم أنه في كل مرة يحسب حساب جيراننا الملتصق بيتهم بيتنا فتجد رائحته وعطائه قد امتد إليهم أيضا.

يعرف جيراننا فردا فردا، ويلاطفهم، ويذكرني عندهم بالخير دائما، بل ويوصيهم بي وبأهلي خيرا. وقد سرد لأحدهم - ذات يوم - قصة تتعلق بأبي، فتغيرت نظرتي لي، وتغير تعاملهم معي واعتبروني سليل رجل عظيم الشأن ، وقد بادلتهم احتراما باحترام وودا بود ، وتوطدت بيننا العلاقة حتى أصبحنا كأفراد أسرة واحدة.

ضيفنا الظريف عندما يزورنا فإنه لا يفتأ يحمل هذا لطفل ويداعب ذاك الصبي. يلاطف هذه الطفلة ويمتدح تلك الصبية. وأول ما يستقر به المقام فإنه يطلب أصغر أطفالي، فإذا أحضرناه فإنه يحمله حينا ويقذف به عاليا حينا آخر، يعضه بلطف ويقاتله بحنان، ويغني له : يا خالتي سعادة، اعطيني القلاده. وربما هدهده في بعض الأحيان إلى أن ينام. إنه رجل لطيف ودود في جميع أشكاله.

اليوم أعطيناها الطفل الصغير كما طلب. تناوله من يدي وظل يداعبه قليلا، طوح به في الهواء ليلقفه ثانية، ضمه إلى صدره وقبّله بين عينيه وفي وجنتيه. في هذه الأثناء وتحت إيقاع هذه الحميمية عطس الصغير سامحه الله. عطس عطسة لم نحسب لها أدنى حساب فنزل رذاذ



عطسته على وجه ضيفنا الظريف ورأيت اللعاب يسيل من على وجنتيه ومع أطراف شعرات لحيته. بان الهم والغم والخوف على وجهه، لم تعد ملامحه ملائكية كما كانت، تتم بكلام لم استبن منه شيئا لكن ملامحه غاضبه، وقد يكون غاضبا. سلمني الطفل وطلب ماء وصابونا ومعقما!

هـ - واقعة الاستوديو

هذا المذيع المتألق يزداد تألقه يوما بعد يوم، وتتسع مساحة المعجبين به يوما بعد يوم. هو خير من يدير اللقاءات التلفزيونية على الإطلاق، ولذلك يعرفه الناس - وخاصة ذوي الاهتمام - باسم سيّد الأسئلة، وذلك للعمق والتكثيف اللتان عليهما أسئلته. إذا أذيعت له مقابلة تناهبتها القنوات والصحف ووكالات الأنباء، وتحدثت بها المجالس ومواقع التواصل الاجتماعي. وإذا خلص إلى نتيجة فإن ما خلص إليه يصبح أمرا معتبرا يعتد به في مواقف خطيرة أخرى.

ماتزال أخبار مقابله التي أجراها مع رئيس شركة الأسمنت حية، تتجدد كل يوم وكأنها تذاع على الهواء مباشرة، هذه المقابلة تشتهر بين الناس بالمقابلة أم غمزه، لأنه قد غمز الضيف وهو يقول له أصدقني القول، وكانت تلك بداية تداعي الضيف تحت طرقات المقابلة. وللحق

فقد كان جريئاً في إدارتها كما لم يكن من قبل، متجرداً من المجاملة والخوف، متحملاً مسؤوليته كإعلامي، مقدراً قيمة أن يضع النقاط فوق الحروف في قضية الإسمنت المغشوش الذي أقلق الناس وهزت ثقة المقاولين في الشركة.

ومقابلته الجريئة مع لاعبة التنس العظيمة، لقد برأتها تلك المقابلة مما نسب إليها، وعمدت المحكمة إلى اعتماد تلك المقابلة وثيقة من وثائق القضية. ولقد أسهمت تلك المقابلة لاحقاً في كشف اللص الحقيقي الذي كادت سرقة أن تعلق برقبة اللاعبة المسكينة. إن نقطة الانطلاق في تلك المقابلة - كما رأينا - قد ابتدأت بدمعة من عينيه. قالوا عنها أنها دمعة حقيقية وقالوا، بل هي ضرب من التمثيل يجيده ذلك المذيع المتمرس. وسواء كانت دمعة حقيقية أو دمعة تمثيلية كاذبة، فقد أبكت اللاعبة بكاء حقيقياً، ومن بكاء اللاعبة بدأ خيط الحل، وبدأت الخفايا تتكشف شيئاً فشيئاً.

على أن أخطر مقابلاته على الإطلاق، هي تلك التي واجه بها لص الأراضي الشهير. كان ذلك اللص سمساراً يلوب مكاتب الأندية الرياضية، يبيع اللاعب الفلاني ويشتري اللاعب الفلاني. هذه هي مهمته في الظاهر، سمساراً يتاجر في اللاعبين. لكن هذه المهنة في

حقيقتها مجرد غطاء لسرقات كبيرة جدا، أراض فضاء يسهل منحها للنادي الفلاني، ثم يحولها إلى ملكية خاصة وهكذا. هذا اللص الخطير كشفه مذيعة الأملعي في المقابلة التي تعارف عليها الناس بأمر الضحك. ذلك أن المذيع قد ضحك كثيرا على الهواء في نهاية الحلقة فأطاحت تلك الضحكة الماكرة بأخطر لصوص القرن على الإطلاق.

هذا المذيع الأملعي، ذو الكاريزما الطاغية، مدمر الطغاة والصوص قد دمره فيروس كورونا في آخر حلقة له، ولم يعد بعدها للتلفزيون فقد سقط بها سقوطا مريعا. لم يمت ولم تنتقل له العدوى ولم يصب بالفيروس إصابة مباشرة، بل ظهر ضعيفا يستبد به الخور فلم تقم له قائمة بعدها، وهكذا يصح ما قاله الأولون: ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع. وصح ما لم يقل الأولون وما لم يقل المتأخرون: الخوف أو الهزيمة.

تم تجهيز الأستوديو في تلك الليلة المنحوسة، ووصل الضيف إلى غرفة الاستقبال استعدادا للمقابلة. جرى توزيع الكاميرات في مواقعها المناسبة، وقام المخرج بتعميم تعليماته الأولية. اجتمع المذيع الأملعي بضيفه قرابة خمس دقائق، يبدو أنه كان يضع بين يديه حدودا معينة، وقد تكون جلسة مجاملة ودية لا غير.

جاءت موظفة لتأخذ الضيف إلى منصة المقابلة، وهناك استلمه مهندس الصوت. خبأ الميكرفون تحت ملابس الضيف بطريقة تمويهية عجيبة، وقام بأكثر من تجربة للصوت. جاءت موظفة أخرى وفي يدها مرآة وطلبت من الضيف أن يفحص وجهه وملامحه كي لا تظهر له مناظر لا يرتاح لها لاحقا.

بدأت المقابلة، وبدأ سيد الأسئلة يغرس مخززه في جلد الضيف. دقائق مضت والمقابلة تتقدم بنجاح. فجأة طرأت على الضيف مقدمات العطاس، فتح الضيف فمه ومدّ ظهره قليلا، أدرك المذيع تلك المقدمات فصرخ بقوة: لا. هوى الضيف برأسه للأمام قليلا من غير عطاس فصرخ المذيع مفزوعا: لا. سحب الضيف نفسا وتراجع للخلف قليلا ثم أرسل عطسته تحت صرخات المذيع، صرخات على الهواء كانت وكأنها صرخات ثور تحت ركبة جزّار. تناثر المشهد، اختلطت الفوضى بسحابة من الرذاذ وبضع كلمات عارية تنفلت من فم المذيع المدعور.

٦- واقعة ليلة الظلام الرامس

أطفالي وزوجتي وأنا ننتظر العيد، وكذلك سائر الناس. النساء والرجال والصغار والكبار ينتظرون العيد، وكنا على يقين أن السلطات

الصحية ستسمح بفتح الأسواق خلال ليالي العيد. سنجد فرصة للتسوق وسوف نتمكن من شراء الملابس والعطور وحلويات العيد وشتي حاجيات العيد. وفعلا ، لم يطل انتظارنا حتى صدر بيان السلطات، وأذنوا بفتح المحلات لساعات معدودة. تفتح المحلات أبوابها، تفتح، ولكن مع التشديد على بقية الاحترازمات، فإن كورونا لا عيد عنده ولا إجازة.

ظهر مذيع التلفزيون - الذي نتفاءل به عادة- ظهر مبتسما من قبل أن يتكلم، بيتسم ابتسامة عريضة وكأنه قد أدرك انتظارنا له ولما في جعبته من أخبار. قالت ابنتي الصغيرة - حال رؤيته - وبعبارة موجزة شديدة التكثيف: سمحوا بالعيد يا بابا! قالت ذلك جذلى ولما ينطق المذيع بعد! فلما تكلم ضحكنا! ضحكنا جميعنا لأنه قال لنا ما يفيد عن المعنى نفسه، ما ينطق بالعبارة المكثفة نفسها التي نطقت بها صغيرتي: سمحوا بالعيد.

عقدنا العزم - زوجتي وأطفالي وأنا- على زيارة المول الكبير، المول الذي يفد إليه المتسوقون من أطراف المدينة. نزوره بعد صلاة التراويح مباشرة لنعطي لأنفسنا وقتا أطول للتسوق، إن مسألة التسوق في زمان كوفيد-١٩ تحتاج شيئا من الحسم. نحاول ألا تزيد عن ثلاثة

أيام، فإن اختصرناها إلى أقل من الثلاثة فقد أسدنا إلى أنفسنا معروفا.
وعمدنا إلى التخطيط، عمدنا إليه في هذا العام بخلاف الأعوام الماضية.
نحدد احتياجاتنا فلا نترك للبحث العشوائي حبالا يجرنا به فيطحن أوقاتنا
ويهرس أكتافنا.

أتمت آخر ركعات صلاة التراويح التي أصليها في بيتنا هذا
العام تحت وطأة الجائحة، أتمتها وناديت على رفاقي: هيا إلى السوق
يا رفاق. ما أتمت ندائي حتى كانوا- زوجتي وأطفالي- وقوفا أمامي.
استعرضتهم مثل قائد الجيش، تفقدت كاماتهم وقفازاتهم، فلما تأكد
لي أن كل واحد منهم على قيافته المتوخّاة قلت لهم: إلى الباب. وخرجنا
جميعا يظللنا شوق إلى السوق وما فيه من متاع غيبه كورونا عن أعيننا
شهرين إلا قليلا.

وصلنا إلى السوق، وتحديدًا المول الكبير الذي في قلب السوق.
المول مزدان بالكثير من محلات الأقمشة والأزياء، مختلفة الألوان
والأشكال. ملابس داخلية وخارجية، حاجيات الأولاد وحاجيات
البنات. الأحذية والأربطة والإكسسوارات، وفي ضفة مقابلة ترى أكوام
الحلويات أصنافا مصنّفة، يسيل لها اللعاب وتحار فيها الأبواب. لم نك
كالعادة ندور لتعرف، كلا. كنا نتعرف مباشرة لنشتري، ونشتري

بتقنين مختلف. الجائحة دربتنا على التركيز وترشيد الوقت، دربتنا لأنها تتقاسم معنا أوقاتنا وتظلمنا القسمة غالباً.

كان السوق يموج بالمتسوقين، موج كموج البحر، وزحام كزحام يوم الحشر الذي يصفون. يتجمع ضجيج هؤلاء الخلق جميعاً حتى يغدو كمظلة كبيرة فوق رؤوسنا، يلغي أسماءنا أو يطمس ما بين الأحرف فلا تعد آذاننا تميّز شيئاً. وهؤلاء الأطفال كأنهم طير الأبايل، لهم مناورات مذهلة بعربات السكوتر المثيرة التي تندفع بهم كالسهام، طيور أبايل لكنهم من غير حجارة السجّيل. قالت زوجتي: سكوتر في هذه الزحمة؟ هذا كثير جداً، ومزعج جداً، قلت: لكنهم عصافير الجنة في آخر المطاف.

كانت الأكياس والأوعية تتزايد في أيدينا، تتزايد وفق متوالية رتيبة. كنا نخرج سباحة من محل إلى آخر وكأننا في بحر محيط، تحف بنا الروائح بكل تدرجاتها وجميع تناقضاتها. وكنت - كلما عبرت انفي رائحة- أتساءل: هل نحن في مأمّن من كورونا؟ ويبدو أن هذا لم يكن هاجسا عندي فقط ، حتى زوجتي سألت: من يدري عن كورونا في هذا الزحام؟ وبينما كنا نطمئن بعضنا، ونلوذ بحماية الله ولطفه، إذ انطفأت أنوار السوق فجأة.

انطفأت أنوار السوق فجأة فبتنا في ليل دامس، لا نرى شيئاً
على الإطلاق. قلت لزوجتي انتبهي للولد وسوف انتبه للبننت ونسير
حيثا حتى نجد بصيصاً نخرج منه، نخرج الآن فقد جمعنا حصيلة طيبة
هذا اليوم. سمعني فقالت فهمت، فمشينا. نمشي رويدا، نتجنب -
على ما ترى بصيرتنا- أن نصطدم بأحد. مضى الحال على أحسن
حال فقد كانت خطتنا موفقة وميسرة، موفقة تماما لولا عطسة نشرت
فوقنا سديما أحسست به في صدري ورقبتي. عطسة لا يمكن - على
الإطلاق- أن تكون خالية من فيروسٍ ما، فيروس أليف أو متوحش لا
فرق. لذلك أغمضت عيني، وأغلقت فمي ومشيت بهم ولكن على
وتيرة أسرع.

حفلة عمى الألوان

كانت برقية سعادة المدير العام صارمة حازمة، كل حرف فيها كان يتوعدنا بما لا نستطيع رده. وللإنصاف فالوضع في منتهى الخطورة، هذا المصنع وقد توقفت عجالاته تماما وكوفيد-١٩ لا يزال في ميعة الصبا يصل ويجول رغم ادعائنا بالمستوى الحضاري الذي بلغناه والذي لم يشهد له التاريخ مثيلا قبل حقبتنا الراهنة. كنت أول من فتح البرقية، قراتها جيدا فأدركت خطورة الحال، ثم استعدت بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا واستدعيت سكرتيري، استدعيته ليظل معي في الصورة فهو رجل خلاق وصبور جدا، ولا بد من عمل ما ننقذ به المصنع أو نتجاهل فنتركه يغرق فنغرق معه.

جاء سكرتيري على عجل، دخل المكتب وأغلق الباب خلفه كما هي عادته عندما يدرك أهمية الموقف. كاد أن يجلس على الأريكة المواجهة فقلت له لا. تعال هنا، كن قريبا فهذا وقت القرب. جلس على يميني فألقيت البرقية أمامه وقلت لا ترفع بها صوتك، اقرأ بعينيك فقط. تناولها بقلق بالغ وشرع يقرأ بعينه فعلا. قلت له وقد طوى البرقية

في يمينه: ما ذا ترى؟ وضع البرقية مطوية على سطح مكثي ثم أدخل شفته السفلى تحت ثناياه العلى بينما كان يحدق في سطح المكتب.

مصنعا متخصص في صناعة الإكسسوارات القماشية النسائية.

شرائط الشعر مختلفة اللون والمقاس والخامات، ربطات المعصم، العقود القماشية من كل طراز ولون، حقائب من القماش أو من القماش المشكول مع الجلد. ونصنع أيضا طُرزا مختلفة من الأحذية القماشية، وإلى ذلك ففي مصنعا طواقم من المصممين الذين لا تنام أعينهم عن التطوير والابتكار، ولا تسهى خيالهم عن متابعة الناس واهتمامات الناس. والمصنع يصرف مكافأة سخية لمن يقدم فكرة تدر على المصنع مالا حتى ولو كان صاحب الفكرة من خارج المصنع، وقد حدث ذلك بالفعل وفي مرّات عديدة.

طرح سكرتيري فكرة ممتازة. اقترح الدعوة لاجتماع عام يجمع مديري الفروع ورؤساء الأقسام، اعترضت على اقتراحه، اعترضت لأن الاجتماع الآن كمن يود أن يعمل عملا صالحا وهو على فراش الموت.

كوفيد-١٩ لا يمزح ولا يجامل ولا ينتظر. وفي الواقع فإن اعتراضى لم يجد القبول المناسب لدى سكرتيرى، قال بالحرف العريض: لا بد من إشراك الجميع في مدارس الحالة، وعلينا - إن اتفقنا على المؤتمر - أن



نبادر بالدعوة إليه في أسرع وقت ممكن، وعلينا أن نضع الجميع أمام حقيقة المشكلة دون أدنى موارد، لماذا نبقي وحدنا فوق سطح ينهار؟

نسيت نفسي لثواني معدودة وشرعت أغني: يا نختين في العلامي يا بلحهم دوا. سرعان ما ثبتُّ إلى رشدي فأغلقت فمي، أغلقتة على قليل من الطرب وعلى كثير من الخجل ثم قلت لسكرتيري: ما رأيك إذن أن نبدأ المصارحة من هنا؟ نظر إلى عيني ثم سأل: نعقد اجتماعا هنا؟ قلت: نعم. قال الآن، خير البر عاجله. قلت له: إذن نجتمع الآن في قاعة الاجتماعات. ثم أمرته: تطف بالدعوة إلى ذلك وليكن على عجل. قال نجعله على العاشرة، وكانت الساعة التاسعة والنصف فقلت له: العاشرة موعد مناسب.

اجتمعنا في الموعد المتفق عليه وقرأت عليهم برقية المدير العام، كانت البرقية كفيلة بتنبيه الجميع إلى خطورة الموقف حيث قد ساد الإغلاق بعض دول العالم، ولربما دخلنا إغلاقا تاما خلال أيام والمصنع يواجه الاختناق غرقا في بحر كورونا. أنهيت كلمتي تحت اهتمام الجميع وإنصاتهم، وطرح كل واحد منهم رأيه. تجادلنا وتحاورنا واتفقنا واختلفنا، لكن القرار الذي اتخذناه هو الدعوة إلى مؤتمر عام لجميع الفروع والإدارات على أن يكون في أقرب وقت ممكن، ثم أعطينا تفويضا



للسكرتير بتشكيل فريق عمل لمتابعة الإعداد لذلك المؤتمر والتنسيق مع الإدارة المركزية العليا في شأنه.

في الليلة التي كان سيشهد صباحها مؤتمرنا المنتظر، صدرت تعليمات السلطات الصحية بإغلاق المصانع والشركات والمحال التجارية والإدارات الحكومية حتى إشعار آخر. لقد انتشر الوباء في مدينتنا انتشارا مريعا وكان لا بد من إجراءات احترازية، ولم يعد هناك من باب مفتوح سوى بعض الإدارات الأمنية والصحية، ومتاجر متناثرة هنا وهناك تفتح أبوابها جزءا من النهار ثم تلوذ بالصمت بقية اليوم. ألغينا المؤتمر وأغلقنا الباب مع المغلقين، غير أننا قد تعاهدنا على استمرار المشاورات بيننا، من بيوتنا لا من مكاتبنا.

انتقل همّ المصنع من المصنع نفسه إلى داخل بيوتنا، إلى العمق، إلى عُرف النوم وإلى ما هو أبعد منها. واصبح التخابر بيننا عبر الهواتف المحمولة أمرا مألوفا في منازلنا، أتحدث بصوت مسموع سواء كنت في صالون الاستقبال أو في الحديقة أو في مطلات الدار أو حتى في غرفة نومي، نعم حتى في غرفة نومي ولن أزيد، لن أزيد رغم أن هناك مواقع أخرى كنت أخابر زملائي فيها بصوت مسموع، قد لا تصدقوا ذلك



وقد لا تتخيلوها لكنها الحقيقة فالمصنع هو حياتنا ومن دونه سوف نتسوّل حتى الخبز.

تحت مظلة هذا المشهد اليومي المتكرر انتقل هم المصنع أيضا إلى أهلنا وذوينا، زوجتي وأبنائي وبناتي وأقاربي الذين لا يشاركوني سقف بيتي، ولم يعد إنصات زوجتي-مثلا- لمكالماتي تنصت مدموما، بل أصبح جزءا من حياتها، وجزءا من حياتي أيضا. بات مألوفا أن يتحدث أبنائي - أيا منهم - عن كورونا وما جرّه كورونا علينا وعلى غيرنا من البشر، وبات مألوفا أن تحل مفردة المصنع ضمن مفردات قاموسنا اليومي مثلها مثل صباحك سعيد أو مرحبتين أو سواهما من المفردات اليومية المحفوظة. وأصبحت قضية إغلاق المصنع وخسارته قضية بيتنا، قضية عائلية نتجاذب حولها أطراف الحديث، نسينا اللحمه والتطعيمات وملّمع الأكر والمنجد وكل همومنا التقليدية وضعناها على الرفّ والتأمّ شملنا جميعا حول المصنع.

فاجأتني زوجتي بسؤال سمعت له دويّا يصم الآذان، نزل على مسامعي مثل صوت رعد في عاصفة صيفية، أو مثل صوت قبلة في حرب تعيسة. وإلى ذلك فقد كان السؤال محراثي السمة، كان محراثا قلب تربة أفكار، بل قلب قضية المصنع برمتها رأسا على عقب



وخجلت من نفسي، كيف طرأت عليها هذه الفكرة الجهنمية؟ بل كيف غابت عني؟ كيف غابت عني وعن سكرتيري وعن رئيس قسم التصاميم في المصنع؟ كيف غابت عن مديري الفروع الأخرى، وعن رؤساء أقسام التصاميم في تلك الفروع؟ نعم أقسام التصاميم فالفكرة مجرد تصميم وتنتهي مشكلة المصنع الراهنة، بل وتمضي أزمة كورونا وهو مرفوع الرأس ونحن نتفياً فيه ظلال كرامتنا.

قالت دون أن تدرك عَظْمَةَ ما قالت: لماذا لا يتحول المصنع إلى إنتاج الكمادات القماشية؟ أليست منتجاته قماشية؟ قلت لها: بلى. وسألت ثانية: أليست المدينة وسائر المدن في أمس الحاجة الآن إلى الكمادات؟ قلت لها: بلى. أضافت: العالم الآن يعيش أزمة كمادات توازي أزمة الجائحة وهذه فرصتكم. وبعد أن سكن خجلي قلت لها: معك الحق كل الحق، مصنعنا متخصص في الإكسسوارات النسائية القماشية، أربطة وأحزمة وعقود وحقائب وأحذية من القماش ومن السهل تحويل ذلك كله إلى صناعة الكمادات.

نهضت من مقعدي وتناسيت احترازاات كورونا وطبعت قبلة على جبين زوجتي، نعم هذا الجبين المشرق الأغر الذي ردّ الحياة للمصنع كما يردّ الغيث الحياة لحقل أنهكه الظمأ. التقطت هاتفي المحمول ونزلت



إلى حديقة الدار، عزمت على نقل الاقتراح فوراً إلى سعادة المدير العام ولي في ذلك مآرب شتى، أولها نيل الخطوة عنده وثانيها أن يصدر أوامره بتحويل المصنع من تخصصه القائم على الإكسسوارات القماشية إلى مصنع للكمامات القماشية وثالثها أن يخاطب الجهات الصحية لتعطينا الضوء الأخضر للعمل تحت طائلة الاحتراقات القائمة.

هاتفتم سعادة المدير العام وما أن نقلتم إليه الفكرة حتى صرخ جذلان: يا إلهي! سمعت منه هذه العبارة فكدم أطمير من الفرح. أضاف سعادة المدير العام مستوضحا: من أخبرك بالله عليك؟ قلت له دون أدنى درجة من التروي: زوجتي، هذا اقترح زوجتي. في هذا اللحظة من عمى الألوان أفرغ سعادته بالوناتي من هوائها عندما أضاف في حنق ظاهر: زوجتك؟ ألا تكف عن التهكم والسخرية؟ ما أكثر ما قالوا عنك بأنك دائم التهكم والسخرية والآن سمعتك بأذني. نجحت رغم "خفقان قلبي وانعقاد لساني" ورغم غضبة سعادته في توضيح الأمر ، وبادر هو مشكوراً بتوضيح ما غاب عني فقد أراد أن يقول: من أخبرك بالله عليك أني أكتب الآن تعميماً بذلك لجميع فروعنا؟

لم أخبر أحدا بما دار في حفلة عمى الألوان تلك، بل لم أفتح الحديث إطلاقاً حول فكرة الكمامات، وعندما لا حقتني زوجتي

بالسؤال عنها وعن مصير فكرتها قلت لها: لقد نزلت منزلا حسنا في نفس سعادة المدير العام ووعديني سعادته العام بمكافأة، ثم أقسمت لها بأن تكون المكافأة الموعودة من نصيبها. وصل تعميم المدير العام، ثم وصلت موافقة السلطات الصحية، وبدأ الحديث يدور في أروقة المصنع عن الكمادات، وفي غضون أيام طرح المصممون أشكالا عديدة للكمادات المنتظرة. تفاوتت تلك الأشكال بين الشكل المؤلف المتداول بين الناس وبين أشكال فوق التقليدية وأشكال أخرى ثورية جدا، وطلبوا من كل فرع - على عجل - أن يرشح تصميمًا منها يتم رفعه للمركز الرئيس ليعتمد من جانب السلطات الصحية.

اجتمعت آراء رؤساء الأقسام في إدارتي على تصميم قميء جدا، تصميم يستفزني ويثير غضبي واشتمئزني في آن معا. كمامة تأخذ شكل منقار بطة، تذكرني بالعم بطوط الذي كنا نتابع مغامرته ونحن صغارا. لقد أفاض المصمم - صاحب منقار البطة هذا - في الحديث عن تصميمه، أضفى عليه - بادئ ذي بدء - مسحة تاريخية حين بين أن له جذورا تاريخية تمتد إلى أزمنة الحرب العالمية الأولى (وربما قال الثانية) ثم أضاف مسحة علمية عندما بين دور منقار البطة في فلتر الهواء الذي يشمه البط والماء الذي يشربه، وأضاف - ثالثا - مسحة تقنية فالكمامة



بشكلها هذا تقبل إضافة فلتر رخيص الثمن تضاعف الحماية وتقتل
تسعة وتسعين بالمائة من فيروسات الهواء.

استخدمت ثقلي بالكامل لمحاربة هذا التصميم القميء، أنا
مدير هذا الفرع ، أنا المدير هنا، لي مكاني المرموقة ولي صلاحياتي ولن
أترك تصميمًا سخيفًا مثل منقار بطة أن يعبر من تحت مظلي أبداً.
واصلت العمل وبذلت الجهد ولم يغمض لي طرف حتى أسقطت منقار
البطة، ثم دفعت رؤساء الأقسام وبقية المصممين إلى ترشيح الكمامة
العادية المتداولة بين الناس فإنها أكثر ملاءمة للوجه البشري وأدعى
للقبول بين الناس. أرفقنا كمامة عادية مع خطاب الترشيح ورفعنا بذلك
ملفا للإدارة المركزية ونمت تلك الليلة نوما هادئا هائنا مرتاح الضمير.

بعد عشر ساعات بالضبط وصلت نتيجة الترشيحات ووصل
معها الأنموذج المنتقى. فتحت المغلف ويا لدهشتي، الأنموذج الذي وقع
عليه اختيار كافة الفروع هو أنموذج منقار البطة. كل فروع المصنع
اختارت منقار البطة إلا فرعنا اختار كمامة تقليدية جدا. هناك مصمم
آخر قد اهتدى إلى منقار البطة مثلما اهتدى لها مصممنا وعليّ أن
أواجه غضبة عارمة عرمرمية، غضبة مصممنا وغضبة رؤساء الأقسام
أيضا، كلهم سيقولون أنت من أعاق فكرتنا وهاهي الآن قد وجدت



قبولا إلا أنها من فرع غير فرعنا. سأكون هدفا لحنقهم ولكراهيتهم وسيدور التهكم والتشفي في أرجاء المصنع كما يدور طائر البوم في ليلة باردة يبحث عن مستراح دفيء.

حقا فعلها الأوغاد وفعلوا أيضا ما لم يكن في الحسابان، ليتهم اكتفوا بالتهكم والشتيمة والتشفي، ليتهم ضربوني ضربا مبرحا أيضا فالضرب يؤلم ساعة ثم يزول الألم، لكنهم كتبوا تقريرا رفعوه للمدير العام، كتبوا تقريرا انتقصوا فيه حتى من قدرتي العقلية، وهذا أمر قد يضر بي كثيرا خاصة مع حادثة المكالمة المشؤومة، ومع ذلك فلا بديل للتجاهل. اضرب عرض الحائط بكل ذلك، وحتى قرارات المدير العام المنتظرة بشأنني سأضرب بها عرض الحائط وما ينزل من السماء تتسع له الأرض.

وَصَلَتْ الليلة البرقية الثانية من المدير العام، فتحتها وقلبي يوشك أن يطير شَعَاعًا، قرأت سطورها وقد بلغ التوتر مني حدا لا مثيل له. في البرقية دعوة لاجتماع عام لكل الفروع، اجتماع افتراضي عن بعد، نلبس فيه الكمامة المنتخبة ويعرض كل منا ما لديه لتحويل المصنع من مصنع إكسسوارات قماشية إلى مصنع كامامات بحسب النموذج المنتخب. سيكون الاجتماع عند العاشرة مساء، كل واحد منا في بيته وأمام كاميرة هاتفه الخلوي، وهناك من ينظم مداولات الاجتماع بين المجتمعين، ولا

وقت نضيجه أبدا فقد أزفت ساعة النصر وهذا ما ختم به المدير العام برقيته.

أخذت موقعي أمام هاتفني الخلوي، فتحت الكاميرة فرأيت عم بطوط بشحمه ولحمه على شاشة هاتفني الخلوي، ضحكت كثيرا من شكلي بهذه الكمامة العجيبة ثم تنبعت إلى رسالة تعلن بدء الاجتماع. جعلوا أول الكلمات لي فأنا أكبر المديرين سنا والفرع الذي أديره هو أكبر الفروع وأقدمها. ألقىت الكلمة وعندما انتهيت داهمتني الرغبة في دعابة ما، قلت: بقباق، بقباق، بقباق، بقباق، بقباق، بقباق، بقباق، قلتها ثم دوت عاصفة من التصفيق انقطع بعدها البث ولم يبق في شاشة هاتفني الخلوي من أحد سواي.



عاصفة الصين

عندما خرجت من باب الحصن المهجور وقبل أن ابتعد عنه التفت نحوه وقلت في نفسي: سنوات طويلة مضت وأنا أراقب هذا الغلام من على بعد، أراقبه وأتجنبه، ما رغبت يوما في صداقته ولا في عداوته، وأصدقكم القول (وآمل ألا يغضبكم هذا أو يعطيكم تصورا سيئا عني) فإن شكله كان من أهم أسباب نفوري منه، عدا عن طريقة تعامله التي تخلو من اللطف، ومنطقه الفج الذي يزلزل حواسي كلها ويثير اشمئزازي، بل ويسلمني لحالة من التوتر، وها قد حللت الليلة ضيفا عليه، سألته وأجاب، أجاب حيننا وتهرب حيننا واعتذر حيننا، لكنه أفضى لي بما كنت أريد.

يعتبره البعض مجنونا، فقد عقله منذ سنوات طفولته الأولى، وأنا أيضا اعتبره كذلك. طريقته في الكلام، إشاراتهِ وإيماءاته، أفكاره التي تأتيك مبعثرة مفككة. لا يمكن أن يكون هذا الغلام إلا مجنونا. هناك نظرية أخرى تفسر هذا الكائن غريب الأطوار، نظرية يؤمن بها بعض أهل قريتنا وفيها قدر كبير من الغرابة واعتساف التأويل، ولكن ماذا نقول لأصحابها وهم يسطرون الدليل تلو الدليل على صحتها.



يقول أصحاب هذه النظرية أن هذا الغلام قد خطفته حدأة، اختطفته ذات يوم بينما كان يرضع ثدي أمه. حلقت به بضعة أمتار قليلة، ولما عجزت عن حمله وقع من يدها. وقع على أرض صلبة فتأثر بسقطته تلك، وظهر التأثير أكثر ما ظهر على جبينه وعلى عينه اليمنى وعلى الطرف الأيسر من فكه الأسفل. وهم بهذا يفسرون عدم التناسق الذي يبدو عليه وجهه، ولا اعتراض على خلق الله.

ويستمر أصحاب هذه النظرية في توسيع مساحة افتراضهم، وفي تقديم مقارنة تبدو ميتافيزيقية نوعاً ما لتفسير قدرته على التنبؤ. يقولون أن الحدأة التي اختطفته لم تكن عادية، كانت من طيور الجن وقد صبت في فمه لعاب الحكمة على غير قصد منها، فظهر على ما ظهر عليه من خبث ومن سلطة لسان، وتفجرت فيه قدرات خاصة ظهر لنا منه قدرته على التنبؤ.

لقد تنبأ هذا الغلام بجائحة كورونا، تنبأ بها قبل أن نسمع عنها، وما سمعتها أنا إلا منه، من فمه شخصياً، وعندها بدأت أعيد ترتيب علاقتي معه بعد زمان طويل من التجاهل والتجنب والاكتفاء بالمراقبة عن بعد. قال في حشد من الناس - وأنا من بينهم - بأن الصين سترسل على الناس ريحا عاتية تعصف بهم فتفتك بهم فتكا ذريعاً، وقال بأن

تلك العاصفة تدعى باللغة الصينية كوفيد تقتل الناس وتجعل عين الشمس كسولة معتمة.

في اللحظة التي قال فيها هذا الكلام سخرت كثيرا منه، وسخر منه كثيرون معي. فالرياح ليست بيد البشر، هي ظواهر جوية تنشأ عن الحرارة وعن تباينها بين إقليم وآخر وعمما تتركه الحرارة من أثر على وزن الهواء. هذه بديهيات مناخية لم تعد تتسع لأساطير سندباد أو الجنيات السبع أو المارد والسلطعون. قال سترسل الصين ريحا! أي ريح وأي صين وحقائق الكون تدحض هذه الأباطيل؟

في اليوم التالي جاءنا أحد الأصدقاء يتهلل وجهه بالبشرى، ما أن وقف أمامنا حتى قال أن كلمة كوفيد لا علاقة لها بالصينية إطلاقا. قال أنه بحث عنها في ترجمة قوقل، وفتش في قاموس صيني، وسأل صديقا له في السفارة الصينية. بحث عن كوفيد، وعن عاصفة، وعن ريح، وعن رياح، وعن هبوب، وعن هواء فلم يجد أثرا لكلمة كوفيد في القاموس الصيني لا من قريب ولا من بعيد. ضحكنا طويلا واتفقنا جميعنا على أن ذلك الغلام كاذب ينسج الخيالات ويروجها بين القرويين البسطاء.



بعد ثلاثة أيام بالتمام والكمال وصلت إلينا مفردة كوفيد،
ووصلت إلينا مرتبطة بالصين. فغرت أفواهنا بالفعل، أصابنا الدهول
وحلّت بنا هزيمة. كوفيد والصين معا؟ إذن ما قاله هذا الغلام صحيح
جدا. شعرت بالأسى لأني قد سخرت منه، ثم قررت أن أضعه في دائرة
اهتمامي. اعترفت به شخصا خارقا يقيم معنا في قريننا دون أن نفهمه،
وكان عليّ أن أكون خير من يتفهمه وأول من يقرب منه أكثر.

اجتمعنا نحن المعارضون عليه ذات ليلة، اجتمعنا على ربوة مطلة
على قريننا، تحدثنا وطال حديثنا عن هذا الغلام، وعن الصين وعن
كوفيد- ١٩. حاولنا أن نفهم شيئا، أن نكشف سرّا ، أن نخرج من
دائرة الهزيمة أو من دائرة الدهول دون جدوى. الغلام قالها مدوية صريحة،
رياح ترسلها الصين واسمها كوفيد بحسب اللغة الصينية التي لا يعرفها
سوى الجن وهذا الغلام.

في نفس الليلة انضم إلينا فريق من المعجبين به، المصدقين لكل
كلمة تخرج من فمه. دارت جلستنا الثانية هذه عن نبوءات الغلام،
نبوءاته التي تحققت بالفعل وشهد عليها الناس.

سمعت - في الحقيقة - قصصا عجيبة، سمعت بعضها في
مناسبات سابقة وبعضها ما دخل سمعي إلا في تلك الليلة. كنت صامتا

والذين معي كانوا صامتين أيضا، وتركنا دقة الكلام وجناحيه للفريق الآخر.

تحدث أحدهم، افتتح حديثه بسؤال عن حادثة قتل قديمة. سأل عن حادثة قتل السقاء لزوجته، وكلنا نتذكر تلك الحادثة البشعة. حادثة أدمت قلوب الناس، وشغلت فضاءات القرية حيناً. قال المتحدث أن الكشف عن القاتل كان بفضل الله ثم بفضل هذا الغلام! وعندما تسمرت أنظارنا فوق فم المتحدث قال: جاء الغلام وقد حُفظت الجثة، وقد تم توقيف ثلاثة وواحدة على ذمة القضية. وقف بين محقق الشرطة وبين بيت القتيلة، ثم شرع يذرع المسافة جيئة وذهاباً ونظراته متسمة على مسار قدميه. انتفض فجأة وتوجه نحو المحقق ليقول له: القاتل هو زوجها، حققوا معه وسوف يعترف.

التقط المتحدث الثاني طرف الخيط وأكمل، قال بأن الزوج القاتل قد أخذه رعدة في نفس اللحظة وانهار باكياً معترفاً بجريمته. هللنا جميعاً وكبرنا، ثم واصل المتحدث الثاني سرد قصة أخرى. وكما افتتح المتحدث الأول حديثه بسؤال فعل المتحدث الثاني نفس الشيء، سأل الجميع: هل تذكرون الحريق الهائل الذي نشب في مزرعة المؤذن؟ قلنا نعم، كانت حادثة مؤسفة جداً أكلت فيها النار كل شيء في

الحقل قبل أن تصل سيارات المطافئ. قال المتحدث: لولا فضل الله ومنتته ثم هذا الغلام المسحور ما علمنا شيئا عن الفاعل، لقد أخرج الأبرياء من السجل وأدخل المجرمين بدلا منهم.

مضت ليلتنا على هذه الشاكلة، سردوا قصصا كثيرة عن نبوءات هذا الغلام، وعن خوارقه التي لا تصدق ثم انتهى ليلنا. وبينما كنا في اليوم التالي نغادر باحة المسجد بعد صلاة العصر، إذ بغلام الخوارق ينتصب كالإبهام على عتبة من عتبات المسجد وهو يشتم. فهمت من كلامه أنه يتحدث عن جلستنا ليلة البارحة، لا يتحدث فقط، بل ويردد عبارات وأسماء من فضاء الجلسة ذاتها. هللوا وكبروا أما أنا فقد أدركت أمرا مختلفا. قررت في داخلي أن أمضي في مراجعة هذه الحالة بمفردي.

آويت إلى فراشي مبكرا، طاف بي طائف من خيال وسألت نفسي: كيف رأنا؟ كيف رأى جلستنا بذلك الوضوح؟ قال فلان وقال فلان وقال فلان، هكذا؟ بتلك الدقة؟ وكأنه كان يسجل فيلما سينمائيا لسهرتنا؟ حذفت من مراجعاتي تلك كل تشوهات الميتافيزيقيا، وسائر حقائق الغيبيات وأوهامها، برأت ساحة الجن والعفاريت وحتى الشياطين والملائكة برأت ساحتيهما مما يقول غلام التنبؤات ومما يفعل.

تذكرت - في لحظة تجلّي - أن سهرتنا كانت بجوار الحصن القديم الذي يتردد عليه بين حين وآخر، قلعة تاريخية مهجورة منذ قرون لا تعني لأحد منّا شيئاً لكنه وحده فقط من يرتادها حيناً بعد حين. هل يعقل أن يكون الشقي كان في أعلاها يتنصت علينا دون أن نراه؟ ولم لا؟ ومن على هذا الحصن رأى الجرائم التي شهد على فاعليها، حصن مرتفع يكشف القرية كاملة عبر كُواه الأربعة. تبقى مسألة كوفيد، وكل المسائل معقولة إلا مسألة كوفيد هذه. العبارة وليدة يومها، لا شأن للنجوم والطوالع بها، وهي عبارة وإن كانت قد وصلت قريتنا متأخرة فإنها متداولة في العالم منذ شهر أو شهرين على أقل تقدير. جمعت قبضة يدي وضربت بها على طرف المرتبة التي أنام عليها، ضربتها وأنا أقرر: الحصن ولا غيره سيكون شغلي الشاغل منذ فجر الغد.

خرجت في ساعات الصباح ولي شمال لا تحطئه بوصلتي، وصلت الحصن القديم، وجدت بابه مواربا فدفعته بيدي، تقدمت خطوتين حتى أصبحت في الداخل. ظلام حالك رغم أننا في ساعة الضحى، لكن لا نوافذ ولا كُوى يمكن أن يدخل منها ولو بعض البصيص. وجدت سلماً على يمناي فصعدت بحذر، وعندما وجدت نصفي الأعلى في الطابق الثاني من الحصن أشعلت مصباح هاتفي.

الطابق الثاني لا نوافذ فيه أيضا ولا كوى وليس فيه أي شيء سوى بيوت العناكب، وعلى اليسار سلم يأخذ للطابق الثالث فارتقيت متنه. وصلت الطابق الثالث، جُلت في أطرافه بعينيِّ ومصباح هاتفي، كانت أرضيته مفروشة، فيها قطعة حصير بالية ومرتبة منهكة تماما. وهناك صناديق عتيقة تستخدم كمناضد على واحد منها جهاز راديو قديم الصنع، وعلى الآخر مرآة وتلسكوب يدوي وبعض الأسماك البالية وبضع قنائن للزينة غالبا. عرفت الآن أن غلام التنبؤات يأتي هنا كل ليلة، لا يأتي إلا تحت جناح الظلام، ينام أحيانا وعند ساعات الفجر الأولى ينزل ويظل يلوب مزارع القرية وبساتينها وبيوتها وحتى نواديتها.

قررت المغادرة على عجل ومن ثم العودة ليلا، لا بد من القبض عليه متلبسا بالمكان. وبالفعل، عدت على آخر النهار، ارتقيت السلم حتى أسلمني إلى الطابق الثاني، ومن الطابق الثاني إلى الثالث وجلست. قلت لنفسني: سيأتي الغلام فيجدني هنا، قد يتضايق ويسكت على مضض، وربما يلوذ بالفرار، ومن يدري ربما يلجأ للقتال، وفي جميع الحالات سأتدبر أمره. انتظرت ولم يطل انتظاري، فما أن حل الظلام حتى سمعت وقع خطواته على السلم. أشعلت مصباحي فسمعتة يسأل:

من هناك؟ قلت له ضيفك الليلة، ويبدو أنه قد عرف صوتي فصعد حتى استقر أمامي.

لم يسلم، بل رمقني شزرا ثم سأل: والضيف يأتي بهذه الطريقة؟ وقبل أن يسمع مني شيئا التقط صندوقا خشبيا وطوح به نحوي ثم ولى هاربا. تحملت ارتطام الصندوق بوجهي وصدري ولحقت به، كان عند أدنى درجات السلم الأخير وكنت عند أعلاها، ركل السلم ركلة هائلة فتناثرت ألواحه بينما قفزتُ أنا مسافة لا تقل عن ثلاثة أمتار ثم أمسكت به. ورغم توحشه ورائحته التي تفوق رائحة الضربان نتناً فقد طوقته بذراعي وأحكمت الإمساك به، وحتى أهدئ من روعه أقسمت له، أقسمت بأني لا أنوي به شرا وكل الذي أريده هو بناء صداقة معه.

استقبلني هذه المرة استقبال الأصدقاء، اشترط عليّ في بداية الأمر ألا أسأله عن أي شيء، ولما كان مجيئي إلى صومعته هذه لم يكن لولا الأسئلة فقد جادلته حول ذلك الشرط، ظل يصصر حينا ويجادل حينا حتى استقر الرأي على ترك الحرية لي في أي سؤال مقابل ترك الحرية له في أي جواب! قبلت بهذه الصيغة فهي عادلة نوعا ما، جذبته من يده - في أول سؤال - نحو كوة في الحائط الشرقي وقلت: من هذه الكوة أن ترى الجزء الشرقي من القرية بوضوح، قال نعم. ثم جذبته من

يده - في السؤال الثاني- نحو كوة في الحائط الجنوبي وقلت: من هذه الكوة أن ترى الجزء الجنوبي من القرية بوضوح، قال نعم. ثم جذبته من يده -في سؤالي الثالث- نحو كوة في الحائط الغربي وقلت: من هذه الكوة أن ترى الجزء الغربي من القرية بوضوح، قال نعم. جذبته من يده -في آخر أسئلي عن الكوى الأربع- نحو كوة في الحائط الشمالي وقلت: من هذه الكوة أن ترى الجزء الشمالي من القرية بوضوح، قال نعم.

قلت حسنا: إذن أنت رأيت الجرائم من هذه الكوى، وبلغت عن المجرمين، فلماذا لم تخبرهم أنك ترى هذا من كوى في رأس الحصن؟ قال: هذه أدواتي، ولو كشفتها للناس فلن تجدي نفعا بعد ذلك. قلت فلماذا لم تحاول منع الجريمة في دقائقها الأولى؟ قال: ربي أيضا رأى ما رأيت، وهو أقدر مني ولم يمنع شيئا!

تأملت وجهه قليلا غير أنني فضلت مواصلة الأسئلة فسألت، وجائحة كوفيد كيف عرفت عنها؟ وعن بداية انتشارها في الصين؟ أشار بيده إلى الراديو القديم وقال: من هذا. ثم أضاف: الناس في القرية يمتلكون وسائل اتصال تفوق ما أملك، لكنهم لاهون مشغولون، اهتماماتهم لا تتجاوز بطونهم ولذلك لا يعلمون بما يحدث إلا بعد أن

يشيع ويعلم عنه حتى الموتى في قبورهم. قلت: ولماذا لم تخبرهم بالخبر
كما هو؟ لماذا لجأت إلى أسطورة الجائحة كما فعلت: قال: اعتذر عن
الإجابة.



الجائحة

يحتاج إلى القيام بإجراءات كثيرة وخطوات متشابكة كي يعود إلى بلاده، بعض تلك الإجراءات تتعلق بالبلاد التي تستضيفه الآن، وبعضها يتعلق ببلاده التي سيعود إليها. جائحة كورونا على أشدها، والاحترازاات على قدم وساق، والدول في كل العالم ما تركت خطة تواجه بها تلك الجائحة إلا واتبعها.

ظفر أخيرا بقصاصتين، أحدهما تحمل له الإذن بالمغادرة، والأخرى تحمل له الأذن بالقدوم. الأولى من بلد الإقامة والثانية من سفارة بلاده. لقد بذل جهدا كثيرا في سبيل الحصول على تلك القصاصتين، قدم خلاله الكثير من التقارير، وقام بالكثير من المراسلات والمخاطبات، ودفع بعض الرسوم هنا وهناك. رغم ذلك الجهد كان سعيدا بما تحقق وسوف تقلع به الطائرة نحو بلاده ليشهد حفل زفاف شقيقه الأصغر.

كان والده بصيرا بتعقيدات السفر تحت ظل الجائحة التي أغلقت كل شيء، أغلقت كل شيء ابتداء من الأفواه وانتهاء بالمطارات ومنافذ السفر. حاول إقناعه بالبقاء في ديار الغربية، والاكتفاء بتهنئة

أخيه هاتفيا لكنه أبي. أصر على الحضور والمشاركة، تحمل مشقة الحصول على التصاريح اللازمة، غامر بارتياح عالم ينغلق على نفسه في مواجهة الجائحة. كان يردد في كل مرة: إن لم أشهد زواج أخي فماذا أشهد؟ وعبثا حاولوا إفهامه بأنه زواج طوارئ في ظل القيود والاحتراقات، لا حفل له ولا ولائم ولا تجمّعات إلا أنه لم يقبل بغير المشاركة بديلا. تحمّل ما تحمّل ليحظى بتلك المشاركة، واستعد أيضا بمواجهة المجهول الذي لم تظهر علاماته بعد. خاصة أن زوجته وابنته وابنه قد سبقوه في بالسفر إلى الديار، ثم حالت الجائحة بينهم وبين العودة إليه.

لبس لامة حربه وانطلق! لبس الكمامة والقفّاز وحمل في حقيبة يده قنينة معقم صغيرة. وصل المطار الذي يعرفه جيدا لكنه لم يكن على عهده به في آخر مرة، كان خاليا إلا من بضعة مسافرين ومع ذلك فلم يجد مقعدا ليجلس، لقد أزالوا ثلثي المقاعد وأعادوا نشر الثلث الباقي على المساحة نفسها تحقيقا لمبدأ التباعد. صفوف الانتظار أيضا كانت طويلة ممتدة رغم الأعداد القليلة في الصف الواحد، كان الفاصل بين المسافر والمسافر يقارب المترين. المسافة بين موظف المطار وبين العميل كانت بعيدة، بالكاد يسمع صوت الموظف ويضطر هو لرفع صوته.



المشي في ردهات المطار هي أيضا محسوبة، والخطوات مرسومة على الأرض، وعموم حركة الناس توشك أن تكون روبوتية السمة.

دخل الطائرة مقنعا وكأنه لص أفاك، والركاب كانوا مقنّعين أيضا وكأنهم مقدمون على سرقة خزانة ما. روائح المعقمات تفوح من الأيدي والأقدام، والقفازات تبدو كنسيج شفاف من فضة خالصة. ومثلما كان التباعد في المطار ها هو الآن داخل الطائرة، لقد أغلقوا ثلثي المقاعد وسمحوا بالثلث الباقي فبدت وكأنها متباعدة. أما حرارة الناس فكانت تحت المعاينة الدائمة، لا يكاد يبتعد المسافر عن كاميرا من الكاميرات الحرارية حتى يفاجئه موظف يحمل جهازا يدويا تقليديا لقياس الحرارة. وفي داخل نفسه كان يتمنى لو بقيت هذه الإجراءات إلى الأبد، لقد ضبطت إيقاع السفر، وباعدت بين الناس، وأغلقت الكمامة فما قد لا يخلو من رائحة ما، وأنفاً قد لا ينجو من رائحة ما.

الرحلة كما هو المعتاد طويلة، والمسافة هي من القليل الذي بقي على حاله قبل الجائحة، أما الهدوء فهو أمر لم يشهده على طائرة قط قبل هذا اليوم. استسلم للنوم دون أدنى عناء فالهدوء كان مشجعا، نام وكلما فتح عينيه أدرك أنه معلق بين السماء والأرض فعاد للنوم ثانية. كان الطعام ممنوعا على الطائرة كتدبير من تدابير الاحتراز ولذلك غابت

عربته، وعند طلب كوب من الماء قد يظفر به الراكب وقد لا يظفر به. عربة الصحف وعربة المبيعات أيضا كانتا خارج الخدمة ولذلك نام، نام طوال مسافة السفر حيث لم تزعجه أيًا من العربات الثلاث. نام نوما هائنا لم يستيقظ منه إلا مع لحظة ارتطام عجلات الطائرة بأرض المطار في بلاده.

عندما دخل مطار بلاده وجدته على نفس وتيرة الاحترازات، المقاعد لم يبق منها إلا الثلث بعد أغلقت اللواصق الثلثين، وحركات الناس مرسومة على الأرض، والكمامات والقفازات وروائح المعقمات والموظف الذي تتحدث إليه يفصل بينك وبينه متر ونصف المتر. مطار الإقلاع ومطار الهبوط متشابهان رغم اختلاف البلدين، ورغم المسافة الشاسعة بينهما. خيّل إليه أن المطارين يداران من غرفة تحكم واحدة، لكنه كان يدرك في الوقت نفسه أن السر في الجائحة. لقد ضبطت جائحة كورونا الكثير من إيقاعات الحياة، وأعادت الناس - في نفس الوقت - إلى ما وراء خطوط الحضارة المعاصرة بما ظهر من عجزهم عن مواجهة هذا الوباء المستطير. المعاهد والمختبرات والمنظمات والأموال وجوائز نوبل في الطب والحكمة كلها توارت بالحجاب، تراجعت نحو عُرفٍ محصنة خوفا من فيروس وحيد الخلية!

أخبره المراقب الصحي في المطار أن عليه البقاء في حجر رسمي قبل أن يغادر إلى بيته، تحدث مع الموظف قليلا وارتفع الصوت، أقسم له بأن يحجر على نفسه في بيته المدة المطلوبة فلم يوافق. التعليمات تقضي بنقل القادمين جميعا إلى فندق قريب تستأجره السلطات الصحية، وقد تم نقله معهم بالفعل وهو لا يدري ماذا يفعل، قبل على مضض ثم هاتف عائلته يخبرهم بما كان. مضت أيام الفندق مملة كثيبة رغم النجوم الخمسة، وحيدا لا يربطه بالعالم الخارجي سوى هاتفه الخليوي. وربما رفع أحدهم عقيرته بالغناء فأضاف بذلك غمّا إلى غم. الكشف الصحي كان يدور عليهم على رأس أوقات متقاربة، قياس الحرارة وقياسات أخرى وملاحظات يكتبها الطبيب الذي لا ترى منه شيئا. وفي الأجل المحدد للخروج جاءهم طبيب آخر، وزع عليهم بعض الهدايا والتذكارات ونشرات في التوعية الصحية وسلة قد ملئت بالمعقمات والمنظفات الصحية. كان الخروج مثل الدخول، كل مسافر على حده، وعلى نفس الهيئة، الكمامة والقفاز وعطر المعقم.

السيارة التي استقلها من الفندق إلى بيته كانت معقمة، وعلى جوانبها تعليمات السلامة من كورونا. كانت تسير في شارع خال من السيارات ومن المارة، قليلا ما يرى سيارة تمر هنا أو هناك، وكان هذا

الشارع قبل اليوم يغص بالسيارات. عند كل مخرج تبصر السلطات الصحية تقيم مركزا للتفتيش والمراقبة، كل عابر للطريق ينبغي أن يكون عبوره ذلك مبررا. سأل السائق فقال له: توقفت الحركة تماما، قليل جدا من العابرين وبعض شركات التوصيل التي تخدم العملاء في بيوتهم. سأله السائق: أنت قادم من سفر بعيد؟ فأجابه نعم. سأل ثانية: وكيف هي تلك الديار؟ قال مثل هنا، حذو القذة بالقذة، العالم كله من الجائحة في رعب عظيم. اتفقا على أن الجائحة قد كشفت عوار الحضارة المعاصرة، إذ كيف يعمل فيها كورونا ما عمل رغم تقدمها العلمي. أضاف سائق السيارة الأجرة ضاحكا: كنا ننتظر من الطب الحديث أن يكتشف علاجا للموت لكثرة ما تحدثوا عن تقدم الطب، وهاهم الآن يفرون كما تفر الأرانب، يفرون أمام كائن وحيد الخلية، كائن بسيط لكنه قد أغلق عليهم أسماعهم وأبصارهم!

وصلت السيارة إلى أحد مداخل الحي فأوقفهم المراقب الصحي، بيّن لهم أن الحي مغلق بالكامل، وهناك خمسة أحياء أخرى مغلقة بالكامل. الإغلاق الكامل يعني منع التجول طول النهار وطول الليل، يحدث هذا عندما ترتفع الإصابات داخل الحي. عندما تصل الإصابات في حي من الأحياء أو في مدينة من المدن فإنه يُفرض عليها الإغلاق.

وضح لهم المراقب ذلك، وعندما تأكد له أن محدثه مسافر يعود الآن إلى داره سمح له بدخول الحي، سمح له خاصة وأن معه شهادة إتمام حجر صحي، والسائق أيضا من المصرح لهم بالتنقل خلال كافة مستويات الإغلاق. دخلت السيارة وبدأت تتهاذى داخل شوارع الحي الكبيرة والصغيرة، شوارع خالية حتى من القطط التي كانت ترسم وجودها داخل هذا المشهد.

لا حظ ملاحظة عظيمة، ملاحظة قد لا ينتبه لها غيره. حاويات القمامة فارغة تماما وكأن الحي خالٍ من أهله، هل توقف الناس عن الإسراف؟ سأل نفسه أولا ثم سأل السائق: هل تلاحظ؟ الحي تخلّى عن زبالته التي كانت مثل العلامة. قال له السائق أنه لم ينتبه إطلاقا لهذه المسألة، هز رأسه ثم استأذنه في الوقوف دقيقة. توقفت السيارة فترجل منها وسار حتى توقف بجوار حاوية قريبة، مد ظهره ليرى ثم عاد للسيارة. عاد ضاحكا وهو يقول: الجائحة لوّنت زباله حيننا! الكمادات المستهلكة تشكل نسبة ملاحظة ضمن محتويات الحاوية. استأنفت السيارة طريقها في شوارع خالية كأنها شوارع مدينة النحاس، لا أحد على الإطلاق. حتى حراس العمائر قد غابوا عن مداخل

عمائرهم، وفي أوقات مضت كانوا أمام المداخل زرافات ووحدا لا تدري فيم يتحدثون ولا عن أي شيء يרטون.

كان أبوه وأمه وإخوته وزوجته وبنوه على علم بوصوله، وعلى استعداد تام لاستقباله، لذلك اصطفوا متباعدين في مدخل البيت. هم أن يخلع كمامته لكنه لاحظ تمسكهم بكماماتهم، هم أن يمد يده مصافحا لكنه لا حظ وقوفهم بأيدي مسبلة إسبال بعض العباد في الصلاة. ركز النظر فيهم فردا فردا، وفي كل مرة كانت تخرج من فمه كلمة بارده: كيفك؟ أسرع أبناؤه نحوه لكن جدتهم قد أوقفت تقدمهم، داعبهم بالكلام قليلا لمدارة هذا الانفصال العجيب ثم واصل الدخول. دخل كما يدخل الأغراب لولا عبارات الترحيب التي طغت على كل شيء. استقر بهم الجلوس على الأرائك متباعدين، ملثمين، تفوح منهم روائح المعقمات. واصلوا عبارات الترحيب، وتبادلوا الأشواق لكن من وراء حجاب.

كان السؤال عن هذا الإغلاق الجاثم على الحي دون سائر المدينة، وكانت الإجابات من الجميع، كل يقول ما رشح لديه من المعلومات. قال الأب: عثروا على إصابات كثيرة في حيننا، حتى عمارتنا هذه عثروا فيها على أكثر من إصابة. قالت الأم: أربع إصابات. امرأة

عجوز وولدها الشاب، وساكن من سكان الدور الأعلى، وحارس العمارة. استدرك الأب: كلا، كلا. حارس العمارة عاد اليوم من المستشفى، لم تكن إصابته مؤكدة مجرد اشتباه ووسواس خناس وها هو في غرفته الآن. قالت الزوجة: أغلقوا عددا من البقالات والمخابز اشتباها في أهلها، ثم أغلقوا الحي بكامله بعد ذلك.

جاء دوره في الكلام فأخبرهم عن كل شيء، مطارات القدوم ومطارات الوصول، الخطوات المرسومة على أرضيات المطار، التباعد وروائح سوائل التعقيم والكمادات التي جعلت أشكال الناس تبدو وكأنها أشكال لصوص. حدثهم عن الحجر في فندق فخم وكيف تمنى لو كان في خِدر صحراوي مع أهله، أو في كوخ سَمَّاك على الشاطئ، ولم يكن في فندق فخم لا حياة فيه ولا أنفاس. قال أبوه معقبا: جنة من غير ناس ما تنداس، هذا كلام الأولين يا ولدي، وهم أكثر خبرة منا بمقتضيات الحياة. ومضت الجلسة في أحاديث شتى، غير أنها لم تخرج عن الجائحة. استمر الحديث ومهما تشعب فإن ميدانه هو الجائحة فحسب، تحدثوا وأطالوا حتى ارتفع صوت المؤذن في مسجد الحي.

توقف الضيف عند عبارة يسمعها في الأذان لأول مرة، لأول مرة تطرق سمعه وما كان يخطر على باله أنه سوف يسمعها يوما. صلّوا

في رحالكم، صلّوا في رحالكم، يقولها المؤذن منعمة كما ينغم بقية عبارات الأذان. ظن أنه في منام، قرص كفه بشدة، تأكد أنه على قيد الانتباه. سأل الذين من حوله: صلّوا في ماذا؟ قالت أمه: يقول صلّوا في رحالكم، أي حيثما أنتم، المساجد الآن مغلقة يا ولدي. زم شفّتيه وصفق يدا بيد، علت وجهه سحائب دهشة بالغة فقال: هذه الجائحة اجتاحت كل شيء، كل شيء حتى المساجد؟ قال أبوه: حتى المساجد، نصلي فرادى في بيوتنا إلى أن يرفع الله الغمة عن الناس.

صلّوا في البيت جماعة متباعدين، صلّى بهم الأب، وبدلاً من عبارة استووا اعتدلوا التي يوجه بها الإمام من يصلي خلفه قال: استووا، تباعدوا. قالها فكانت نقطة معاينة أخرى على واقع الجائحة. أتموا صلاتهم ثم عادوا إلى المجلس المترف بالكلام، دارت أحاديث شتى عن صلاة الجماعة في البيت، وعن صلاتهم في المسجد. تحدثوا عن السلف الصالح وعن جائحات أزمنة السلف الصالح. عادوا إلى جائحة اليوم ثانية، تحدثوا عنها حديث خائف يترقب. الإصابات لا تسمح بالتراخي، وعنف المرض نفسه لا يقبل جدلاً حول الاحترازمات المتبعة. ستبقى الكمادات كما هي، وسوف تستمر جغرافية التباعد متباعدة،

وستبقى الأكف مرفوعة تتضرع إلى الله مع كل إحصائية تصدر عن السلطات الصحية.

تأهبت الأم لتقول شيئاً، تقول أمراً جرى الترتيب له بينها وبين الأب. كانوا في غاية الحرص على صبه في مسامع ابنهم الضيف، ولكن بتأنٍ وتؤده. لم يكن سهلاً أن يذاع الخبر هكذا دون مقدمات ودون تمهيد. قالت الأم وقد بدت وكأنها طيبة الذكر السيدة الحديدية مارغريت تاتشر: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، وهكذا كتب الله أن نراك، وأن تقطع المسافات وتتخطى العوائق والصعوبات لنراك. كان الدافع لمجيئك هو زواج أخيك، والآن، قمنا بتأجيله. كان الأمر ممكناً في بداية الجائحة، ثم أغلقوا قاعات الأفراح. قلنا نجعلها في بيتنا ونقتصر على القليل من الضيوف، والان مُنعت التجمعات حتى زوال الغمّة. لقد خسرنا حفل زفاف، خسرناه مؤقتاً، لكننا كسبنا "شوفتك" يا ولدي.



المغارة البرتقالية المقدسة

طابت أوقاتكم جميعا، آمل أن تتسع صدوركم لسماع حكايتي
العجيبة، حكاية رحلتي إلى المغارة البرتقالية المقدسة:

"اقتلعتني عاصفة هوجاء وطوحت بي خارج مستقر كان بي حفيّا،
عاصفة ساخنة قوية جعلتني أطيّر في سديم من لجين وغيم. تناهني فراغ
بعد فراغ، حلقت كثيرا في يوم كان مقداره دقائق مما تعدون. كان الخوف
يستبد بكل جوارحي وأنا أهوي، والمسافة بيني وبين الملاذ بعيدة. لكن،
رغم العاصفة ورغم المسافة ورغم الفراغات التي تتجاذبني كان السديم
متماسكا، وكان تاجي ثابتا، محكم التمكين لم يسقط أبدا. حتى هذا
الهباء الأصفر الذي يحملني لم يضعف من رغبتني في البحث عن
مستقبلات تقوي من عزيمتي وتساعدني على إنجاز مهمتي في النسخ
والطباعة والنشر، وما هذا التعويم الذي يضيع وقتي إلا محنة لن تلبث أن
تزل، وفي جميع الأحوال فإن الصبر لعبتني.

هَبَطْتُ بِسَلام، هبط بي السديم اللجيني، هبط بكل محتواه لم
يفقد منه إلا القليل. عندما اقتربنا من سطح الهبوط تمدد السديم من
أعلى، أصبحت له قبة ثم تفلطحت قليلا إلى أن تشكلت على صورة

مظلة. كانت - بالفعل - مثل المظلة للمظلي فهبط - بفضلها - وهبطنا
بسلام، وما إن اكتمل هبوطنا واطمأن علينا السديم حتى تنازل عن
سديميته. تنازل عنها في أريحية نقدرها له وتحول إلى بحيرة رطبة واسعة،
بحيرة كادت أن تفرش المكان بكامله. أصبحنا فوق هذا البساط نواجه
قدرا من قدرين، إما أن تمضي بنا الساعات فتجف البحيرة ثم ننفق نفوق
الأسماك في بحيرة جافة، وإما أن تحدث معجزة تحل بساحتنا فنتنشل
المحظوظ منا، فيطلق لإتمام مهمتنا.

مرت الدقائق بطيئة كثيية، بطيئة كثيية، مرت وجذبت معها
الساعة بعد الساعة. البحيرة تجف بسرعة مخيفة، والقلوب محبوسة على
أعتاب الحناجر، ونحن قد أشرفنا على الهلاك بالفعل. الوقت يتسارع تاركا
لنا الموت، لم يمرّ بساحتنا كائن من ذوات الدم الحار. هذه الكائنات
مهمة جدا لنا، لا نقدر على النسخ والطبع والنشر بدونها، بل لا نستطيع
الخروج من هذا السطح البليد دون مساعدة من تلك الكائنات. أربع
ساعات مما تعدون قد انقضت ولا دماء حارة تمر بنا، وهذا الدهن الذي
يغلفني سيدوب حتما، فإذا ذاب فسوف تتساقط أجزاء تاجي جزءا بعد
آخر، وسوف ألتصق بأرض هذا السطح البليد التصاق نقش بمعصم فلا
تقوم لي قائمة بعدها.

يبدو أن ساعة الفرج قد حانت، وأن الصبر قد ختم معاناتي حين
أهداني يدا حارّة. يد تجري فيها دماء حارة ستلتقطني الآن، وأنا بدوري
سوف ألتصق بها، سألتصق بها إلى أن تحين خطوة أخرى. ها هو الآن
يذهب ويعود وفي كل مرة يتكئ على السطح البليد الذي التصق به،
يذهب ويتكئ، يعود ويتكئ. ها قد اقترب، وهذا دفء دمه يكتب لي
صكا بالحياة. التقطني ذو الدم الحار، التصقت به فاقتربت أكثر من
الحلم. لقد قال أسلافي نحن مسيرون لتحقيق أحلامنا، اختياراتنا تأخذنا
مراتب متقدمة نحوها. نحن كائنات عمياء، لكننا ننطلق نحو أهدافنا كما
ينطلق المبصرون، نمتطي ذوي الدماء الحارة، نتوغل في أعماقهم تدفعنا
غريزة البقاء، فإذا استقر بنا المقام بنينا دور النشر والنسخ، ودارت
عجلات مطابعا لنبقى على الدوام ملء السمع والبصر.

بحركة بارعة قام صديقي بوضعي في مكان آخر، من الآن سأعتبره
صديقي وسوف أعبر عنه بكلمة صديقي صاحب الدم الحار هذا،
وضعتني في مكان قريب جدا من الكهوف اللحمية الحمراء، تلك
الكهوف التي انتقل فيها من كهف إلى آخر إلى أن أبلغ المغارة اللحمية
المقدسة. كم هو صديق كريم ونبيل فقد اختصر علي طريقا طويلة ووقتا
أطول، وقرّ جهدي بحركة سريعة وخفيفة قطع بي مسافة شاسعة ووضعني
على مقربة من فم الكهف الأول. أنا الآن سطيح بطيح وهذه مفردة من

قاموسنا السري الذي لا نطلع عليه أحدا، وهذه المفردة تصور حجم الإعياء الذي يسيطر علينا. نلتصق بالمكان، لا نقوى على أدنى حركة، منتهى الضعف لكننا أقوى بهم. أقوىاء بأصدقائنا أصحاب الدماء الحارة، هم وحدهم من يأخذ بأيدينا نحو المغارة البرتقالية المقدسة.

الآن حدث ما لم يكن في الحسبان، وقد قرأت في أسفار أجدادي أن الذي يأتيك من خارج دوائر الحسبان يؤذيك كثيرا، فإن صادف مجيئه وقت بهجة فهو نذير شؤم. وهذا السيل القلوي الحارق الذي اجتاح موضعي الآن هو قادم من خارج دوائر الحسبان، وجاء في وقت كنت فيه من أسعد أنصاف الكائنات التي تلوب أوساطا رطبة في هذه الديار. سيل جارف في اندفاع فيضان مدمر طوح بي نحو جزيرة تحف بها القلويات من كل جانب، كانت الروائح خانقة جدا وبينما كنت أموت أظلم الجو فجأة. قصف الرعد دون برق، كان له دوي وزلزلة قذفت بي نحو سطح نسيجي رخو، تضاريسه بالغة التعقيد لن تسمح لي بالبقاء طويلا. ارتقيت على هذا السطح الشائك مثل جثة لا روح فيها، بلا حراك كنت وبلا انتباه. عدت مرة أخرى إلى مواجهة الموت، ولكن من غير يأس، زرع فينا الأجداد إصرارا على بلوغ الغارة البرتقالية المقدسة لا ينثني أمام حوادث الثواني واللحظات.

لا مناص من الموت، سيدركني بين لحظة وأخرى ما لم تضعني
الأقدار في طريق كائن من ذوات الأثداء، ذوات الدماء الحارة، لكن هذا
السطح الرخو مزعج جدا، سطح رخو لكنه جاف والأسطح الجافة لا
تصلح لي حتى ولو كانت رخوة. مضى الوقت دون عابر سبيل، وأنا من
غير الكائنات ذوات الدماء الحارة مثل ساعة رملية لا تجد من يقبلها
على الوجه الآخر كي تعود إلى حياكة الزمن مرة ثانية من الصفر. عدت
إلى الصمت المطبق عليّ من كل الجهات، عدت للأسطح البليدة التي
لا تتحرك ولا تحرك معها أحد، أسطح باردة لا تغيث ولا تغاث. الساعة
الرملية تفقد معظم ما فيها من الرمل عدا بقية باقية فمن يقبلها، هل من
يد حانية تمتد كي تخلع عن جسدي رداء الوهن الثقيل هذا؟

جاء الفرج واقتربت مني طاقة حرارية، كائن من ذوات الدم الحار
يمر على مقربة مني، التقطني ثم التصقت به. كان إهابه غضاً وحرارته
لطيفة فأدركت أن هذا الكائن سيوصلني المغارة المقدسة بأسرع مما كنت
أظن. أصحاب الجلود الغضة الطرية في قلوبهم رحمة، ولديهم رغبة في
تقديم العون لنا. وكما توقعت، وضعني صديقي هذا على باب كهف
جميل، ولجت الباب فاستقر بي المقام على سطح بطانة رطبة ويا له من
تقدم سأكسب به حظوة بين أهلي وأقراني. لم أستغرق وقتا في البحث
عن عملاء فقد وجدتهم سريعا، أو بالأصح هم وجدوني فإن تيجاني

البروتينية جذابة جدا. لقد ساعدوني كثيرا، تمكنت من النهوض على أقدامي وشرعت في القيام بواجبي. بدأت الطبع والنشر فازدحمت الكهوف اللحمية الحمراء بألاف النسخ وبدأت أنا وهم بالقتال في سبيل هدفنا العظيم، المغارة البرتقالية المقدسة.

يبدو أن صديقنا غضّ الإهاب قد بدأ يتململ، معاركنا في الداخل تسبب له المتاعب، ولكن ما حيلتنا؟ في كل الحروب قتلى من الطرفين وهناك أيضا أبرياء يسقطون بلا ذنب لكن هذا هو حال الحرب. ارتفعت حرارته وبدأ يتحرك حركات لا إرادية، وأخيرا أدركنا أنه لم يعد يتعامل مع الطعام أو الرائحة كما ينبغي. عبّر اليوم طريقا بمحاذاة المجاري المكشوفة فلم يغلق أنفه كما كان يفعل في كل مرة، وفي مساء البارحة لم يكمل كوب القهوة. تأكد لنا أنه يعاني من مشاكل كثيرة، ومشاكل بسببنا ومن تحت رؤوسنا لكن ما لعمل؟ هدفنا في تجاوزه الحمراء الملساء، ومغارتنا المقدسة معلقة في جوفه مثل عرجون ريان يزدحم بحبات الرُّطْب وعليه أن يتفهم حاجتنا جيدا.

أنا حزين جدا على صديقي هذا، متألم كثيرا لحجم المتاعب التي جلبتها له، وخجلان جدا لأنه قد أكرمني وأوصلني إلى ديار ما كنت ببالغها لولا يده الطولى، وكان علي أن أرد له الجميل، غير أن ما يحدث هو أمر لا يقبل المجاملات ولا الصداقات. كل جرم في هذا الكون يتحرك

وفق نظام مرسوم، ولكل منا مصالحة بعيدا عن دواعي الرحمة والعطف والشفقة. لقد جاء في أسفار أجدادي أن الرحمة خور في الطبع، والتراخي نكوص عن الحياة، ولا مكان في المغارة البرتقالية لمن في طبعه خور أو استمرأ النكوص. وكيف أبيع لنفسي نكوصا وقد استد ساعداي وانتصبت قوائي وتكاثر بنو قومي من حولي؟ إما بلوغ الهدف وإما الموت دونه ولتذهب العواطف إلى الجحيم.

لقد بان لي الآن صدق الأجداد، وظهرت نصاعة تجربتهم، فالحياة تدافع وصراع. هذا هو صديقي بدوره قد استعد لإخراجنا وبدأ الحرب، بدأ يرسل علينا شواظ من نار ونحاس ذائب، بدأ يقاتلنا بلا هوادة ولا رحمة. استعرت بيننا الحرب، لم يعد في الإمكان تجنبها، أو حتى المهادنة أو التفاوض حولها. هو يسعى لاقتلاعنا من جذورنا، ونحن قد اقتربنا من غايتنا وبتنا قاب قوسين أو أدنى من المغارة المقدسة، وبالتالي فلن يرحم أحد منا الآخر. صب علينا من سوائل الموت ما يحرق أخضرنا ويابسنا، حرك الأرض من تحت أقدامنا فانبجست عن شعيرات كأنها الأفاعي لكنا صمدنا. صمدنا لساعات كأنها الدهر كله، أسقطنا كل مطارداته لنا، وفي لحظة نور وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام العُرف المعلقة.

جمعت القادة الميدانيين جميعا، ألقيت فيهم كلمة مقتضبة فالوقت لا يتسع للثرثرة. قلت له: هذه العُرف المعلقة هي آخر الحرب وأول

النصر، سنقفز منها نحو المغارة البرتقالية المقدسة بأسرع مما كنا نظن، هل تدركون ما معنى أن نكون في المغارة البرتقالية المقدسة؟ إذا كنتم تدركون ذلك فاستجمعوا قواكم واصبروا وصابروا فقد قال أسلافنا: النصر صبر ساعة، وإني أدرك أنكم تدركون جيدا لماذا نحن هنا. قلت لهم ذلك ثم ودعتهم وخلال ثوان ظهر جليا أنهم ينفذون تعليماتي بصبر وإخلاص. بدأت قوى صديقي المضيف تنهار تحت ضرباتنا، نحن سريعون جدا ونأكل عياراته النارية مثلما يأكل هو التمر أو الحلوى. وإلى ذلك فإن خطواته مكشوفة لنا، نطالعها مثلما نطالع صفحة من كتاب. بينما خطواتنا غير معروفة لديه، ولا يستطيع التنبؤ بها.

واجهنا حربا ضروسا في طريقنا إلى العُرف المعلقة، وجدنا مقاومة عنيفة غير أننا قد صمدنا. وفي لحظة كانت الكسرة في صف العدو بعد أن تراخت قوته، ثم وجدنا الطريق إلى الغرف المعلقة ميسرا فدخلناها، دخلناها دخول الفاتحين المنتصرين. هذه الغرف - لو تعلمون - مليئة بجواسيسنا، لذلك كانت إضافة لقوتنا، وهي أيضا نقطة ضعف لخصمنا والاستيلاء عليها يضع أمره في أيدينا وتحت سيطرتنا، لذلك وجهت تعليماتي لكل القادة الميدانيين بالشروع فورا في تدمير هذه العُرف من الداخل وعندما ندمرها سيدخل صديقي المضيف في ضيق شديد قد يتنفس بعدها بمساعدة آخرين. وإذا تمكن الآخرون من مساعدته فإن

ذلك سيضاعف من مسؤولياتنا وسوف يعقد الأمور علينا بصورة بالغة،
والحل هو في سرعة تدمير تلك العُرف من الداخل.

ساءت حالة صديقي المضيف ودخل في حالة تشبه الاختناق،
أصبح التنفس في صدره مثل احتكاك قطعتي خشب، والحشرجة غدت
أمرا صعب المنال. أسرعوا إليه وتنفسوا معه حتى استنشق الأوكسجين
ثانية، بدأ يستعيد شيئا من قوته فسكب علينا ماء ساما. ماء ساما أحرق
نصف جيشنا، لكننا تجاوزنا ذلك فنحن قادرون على الانبعاث من
جديد، يموت منا جندي واحد فنسخ منه جنديا غيره. المعركة الآن على
أبواب المغارة البرتقالية المقدسة، والحرب الآن أشد ضراوة من أي وقت
مضى. التيجان ثابتة فوق رؤوسنا وهذا دليل على ضعف مقاومة العدو
لنا، والمغارة البرتقالية على بعد أمتار قليلة فقط لذلك صرخت فيهم:
دعوا التدمير الآن وادخلوا المغارة آمين.

دخلت طلائع قواتنا المسلحة إلى المغارة البرتقالية المقدسة،
دخلت دخول الفاتحين، ثم قامت فرقة كوماندوس خاصة بتخريب بعض
الاستحكامات التي تفيد العدو. تدفقت القوات بعد ذلك ودخلت معهم
ويا لهول ما رأيت، مغارة مترامية الأطراف، كثيرة المسالك، متعددة
التجاويف. مغارة مهيبة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وهدف يستحق
النضال الذي كان.

انساح جيشنا الجرار في جنبات المغارة العملاقة، ملأ كل جيب فيها وكل خلية، وفي لحظة لم تكن في الحسبان، وما أسوأ الحوادث التي تأتي من خارج دائرة الحسبان، في لحظة تغيرت الأجواء، وبدأ اللون من حولنا يفقد نصاعته شيئاً فشيئاً، والمغارة تضيق بنا. هنا صرخت فيهم أن غادروا المكان، هناك أشياء غريبة تحدث. وأخذنا نتدافع، والهواء الفاسد يزكم أنوفنا. لم يعد لنا مكان هنا، وعلينا مغادرة المكان كما دخلناه، المغارة ثم العُرف المعلقة ثم الممرات التي تردنا إلى الأسطح البليدة. عندما خرجنا واستقر بنا المقام فوق الأسطح البليدة أدركنا أن صديقنا المضيف لم يعد من ذوات الدم الحار"

وهكذا انتهت حكاية رحلتي إلى المغارة البرتقالية المقدسة، وما واجهتُ وجيوشنا العظيمة في الطريق إليها.

محبكم: فيروس كوفيد-١٩



